



الإنسانوية الجديدة : "حصان طراودة" الإلحاد !

التعليق على مقال :

الإلحاد الجديد .. و "الإنسانوية الجديدة" جيمس فارميلانت

ترجمة :
أ. سعادة مجدي

تعليق :
م. أحمد حسن

سلسلة دراسات تصدر عن مركز دلائل – دراسة (٦) ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

www.dalailcentre.com



الإلحاد الجديد

(و"الإنسانوية الجديدة")

New Atheism

(and "New Humanism")

James Farmelant جيمس فارميلانت

ترجمة :

أ. سعادة مجدي

تعليق :

م. أحمد حسن

مقدمة المُعلق....

تحكي الأساطير الأغريقية أنه لما عجز الإغريق عن الدخول إلىٰ مدينة "طراودة" واختراق أسوارها المنيعة وأبوابها المتينة – رغم حصارها لعشر سنوات – تفتق ذهنهم عن حيلة تتمثل في إعلانهم فك الحصار أخيرا، مع إهداء حصان خشبي ضخم كإعلان سلام لأهل "طراودة"... لم يلتفت أهل المدينة لبعض التحذيرات، وقبلوا الهدية، وباتوا في فرح وسكر حتىٰ الثمالة احتفالا بفك الحصار، عندها خرج الجنود الإغريق من داخل الحصان الخشبي الضخم ليفتحوا الأبواب لباقي الجيش، فتمت عملية الاقتحام. هذه قصة حصان "طراودة" Trojan Horse والتي أخذ فيروس (تروجان) الشهير فكرتها في غزوه المتخفي للحواسيب والأجهزة !

يعد هذا المقال (الذي يتظاهر كاتبه بمراجعة بعض أطروحات الإلحاد الجديد) مثالا جيدا – بما فيه من نصائحه الخاصة – لمحاولة اختراق حصون الأديان (خاصة الدين الإسلامي كما سيصرح الكاتب أكثر من مرة) عن طريق "حصان طراودة" : "الإنسانوية الجديدة" لتمرير الإلحاد.

فكما تُفسد الثمرة الفاسدة باقي الثمر : فإن نصائح الكاتب تصب جميعها في تزيين (الإلحاد) وكتابات (الملحدين الجدد) وإضفاء ما يمكن إضفاؤه عليها من المعقولية والقبول الزائفين : لإفساح المجال لهم للتعايش بين المؤمنين.

والكاتب في ذلك السعي لا يمثل له (النفاق) و (الخداع) كبير إشكال حينما يذكر بعض رؤوسه مثلا مادحا لما أنجزوه من تقارب (أو قل إفساد وخلط) مثل استشهاده بـ"جراهام جرين" الذي اعتنق الكاثوليكية الرومانية ليعلن بعدها بسنوات أنه صار (كاثوليكيا ملحدا) ! فلعمر الله : ما اختلف صنيعه شيئا عن مُحرفي الرسالات

السماوية الذين خلطوا أصل التوحيد بالشرك ! وما ضره لو كان وصف نفسه مثلا بالـ (لا أدري) إذ جمع بين متناقضين ؟! لكن تأبىٰ الرغبة في إفساد الأديان إلا الظهور بمثل هذه الأوصاف المستحيلة عقلا علىٰ غرار (المؤمن بالله : الملحد المنكر لله) ! والتي تشابه وصفنا لأحدهم بأنه (الحيّ الميت) !

وهكذا يسعىٰ الكاتب بكل ما أوتي من قوة لخلط الأوراق بما يوهم المؤمنين بإمكانية إيجاد نوع من التقارب بينهم وبين الملحدين، بل وبين المنهج الطبيعي نفسه الذي لا يعترف إلا بما هو قابل للحس والقياس : وبين الروحانية التي تسمو علىٰ المادية والقياس ! حيث مدح الكاتب ما روجه "سام هاريس" من الممارسات الروحانية الشرقية عندما قال أنه يمكنه وصفها بالعلمية (أي قابلة للقياس المادي) ! فصارت مثالا صارخا آخر علىٰ تناقض الجمع تماما مثل قوله (المؤمن الملحد) !

يقدم كاتب المقال "جيمس فارميلانت"[١] James Farmelant محاولته عن طريق استعراض وتلميع عدد من أفكار (فرسان الإلحاد الجديد الأربعة) الذين انطلقت أبواقهم الإعلامية بالترويج للإلحاد الجديد New Atheism المتهجم بقوة علىٰ الأديان في السنوات التي تلت أحداث ١١ سبتمبر عام (٢٠٠١) وهم : "سام هاريس"– "ريتشارد دوكينز" – "دانييل دينيت"– "كريستوفر هيتشينز".

ثم يكشف الكاتب في آخر مقاله عن مراده بوضوح، وهو تشجيع وجود النزعات (الإلحادية) و(الإنسانوية) داخل المجتمعات الدينية، لأن ذلك سيدفع إلىٰ القبول بوجودهم في نهاية الأمر، بل ويعترف اعترافا صريحا بأنه لا يرىٰ تعارضا بين (الإلحاد

---

(١) تمت كتابة هذا المقال في عام (٢٠٠٧) حينما بلغت كتب الإلحاد الجديد التصادمية مع الدين أعلى معدلاتها في المبيعات، وكذلك احتفاء الإعلام الغربي والعالمي بها وبكُتابها من الملحدين الأربعة وغيرهم، وقد تمت ترجمتها من منشورات موقع "أكاديميا" www.academia.edu.

الجديد) وبين (الإنسانوية الجديدة)، بل يرىٰ بينهما تكاملا.

إذ في الوقت الذي يتميز فيه الإلحاد الجديد بهجومه المتطرف علىٰ الأديان (مما يستنفر المؤمنين للرد عليه ومواجهته بنفس العداء في المقابل)، يرىٰ الكاتب أن دور الإنسانوية الجديدة هنا هو إعطاء الوجه (اللين) لهذا السجال لكسب التعايش والاستمرار ! أو إن شئت قل هي "حصان طراودة" الذي يُسهل مرور الإلحاد وتوغله داخل المجتماعات الدينية والإسلامية !

فالإلحاد والإنسانوية (في الحقيقة) وجهان لعملة واحدة ! والناظر إلىٰ الإنسانوية (مع إنكارها لوجود إله ودين وحق، وأخلاق مطلقة أو حقائق موضوعية) يجدها الوجه (الترقيعي) للإلحاد، وركنه الشديد الذي يأوي إليه ويحتمي فيه عند اشتداد هجوم الأديان عليه بسبب ماديته التي لا مكان فيها لمعاني الخير والشر! إذ : كيف في عالم مادي ليس به إلا ذرات محكومة بقوانين أن يكون لمعاني (افعل) أو (لا تفعل) وجود ؟! هل يمكننا وصف حركة ذرة واحدة في هذا العالم بأنها خير ؟ وحركة ذرة أخرىٰ بأنها شر ؟! هنا يأت دور الإنسانوية المزعومة في تبنيها لذلك (أي إمكانية حديثها عن الصواب والخطأ والخير والشر) لكن تبقىٰ المفاجأة :

أنه رغم إطلاقها لهذه الأحكام بالفعل إلا أنها مثل الإلحاد تماما بتمام : لا تمتلك أي معيار لها ! فهي إما تتماشىٰ مع السائد في بلد ما (فتحكم بنفس ما يحكم به الأكثرية دون أي مرجعية ثابتة أو موضوعية) فإذا تغير البلد أو صارت الأكثرية أقلية تغير الحكم ! وإما أنها تعادي رأيا وتناصر آخر لكن أيضا : دون تقديم أي دليل معتبر للترجيح ! (فقط الهوىٰ والحريات ولو كان ضررها معلوما لكل عاقل)، وهكذا نرىٰ في الإنسانوية غابة من الآراء (بعد التخلي عن الدين الحاكم من فوق الجميع) يزعم

فيها كل شخص أنه يحتكم إلىٰ عقله.. والسؤال ساعتها : أي عقل هنا علينا اتباعه ؟ عقله ؟ أم عقل فلان ؟ أم عقل غيرهما ؟ لا توجد أي ميزة لأحدهم لتطبيق رأيه دونا عن الأخرين في الحقيقة إلا القوة !

فلو قتل أحدهم ملايينا من البشر بزعم أن تفكيره وعقله أخبراه أن ذلك في صالح البقية لضمان معيشة أفضل لهم بموارد الأرض : فبأي معيار يمكنك تخطئته ؟! بل ولو قلت له أترضاه لنفسك ؟ لقال لك : نعم.. طالما أعطتني الطبيعة العمياء في قسمتها القوة ! فالقوي - في عقله - يتخلص من الضعيف لمصلحته وبقائه ولا يبالي.. أوليس بتلك الطريقة (تطور الإنسان) في السيناريو الذي قبل تصديقه الملحدون واللادينيون والداروينيون إلىٰ اليوم ؟

إذن... الإنسانوية في حقيقتها عماء مثل الإلحاد، لكنها عماء (منافق)... عماء يخفي داخله بذرة الإلحاد بمرها وعلقمها. فإذا فهمنا ذلك : سيمكننا قراءة ما تحمله سطور الكاتب من معاني في مقاله (ولاحظوا أن كلامه كان في عام ٢٠٠٧) !

فأمة تتلاعب بها النسبية - المرفوض بالأمس مقبول اليوم والمقبول اليوم مرفوض غدا - هي أمة بلا دستور ثابت للصواب والخطأ والحلال والحرام، هي أمة تتمايل مع مَن يميل لا رأي لها ولا قوة، وهذا هو الغرض الأول من نشر الإلحاد والإنسانوية بين بلاد المسلمين وشبابهم للأسف.

وأخيرا... فقد التزمنا الترجمة الكاملة مع تقليل التعليقات المختارة قدر الإمكان (مع تذييلها بحرف (ح) لتفريقها عن حواشي المؤلف).. نترككم مع المقال.

م. أحمد حسن

حدث شيء غير مسبوق في مجال النشر في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلاث سنوات الماضية. وصلت العديد من الكتب التي تدافع عن الإلحاد إلىٰ قوائم الكتب الأكثر مبيعا - بالرغم من أن نظامنا السياسي قد عانىٰ في العقود الأخيرة من الشطط الديني بسبب ازدهار الحزب اليميني المسيحي.

إن مؤلفي تلك الكتب ينتمون إلىٰ خلفيات مختلطة. فقد كان "سام هاريس" خريجا جامعيا مغمورا لكلية علوم الأعصاب عندما دفع به كتابه الأول "نهاية الإيمان" عام (٢٠٠٤) إلىٰ الشهرة فجأة.

أما "كريستوفر هيتشنز"، مؤلف كتاب "الله ليس عظيما" عام (٢٠٠٧)، فهو صحفي سياسي بريطاني- أمريكي معروف، والذي انتقل بعد أحداث ١١ سبتمبر عام (٢٠٠١) من اليسار المتطرف إلىٰ حزب اليمين المتطرف الجديد.

هناك أيضا "دانييل دينيت"، مدير مركز "تافتز" Tufts الجامعي للدراسات المعرفية، والذي اشتهر بسبب عمله الخاص في فلسفة العقل قبل أن يكتب كتابه "كسر التعويذة : الدين كظاهرة طبيعية" عام (٢٠٠٦)، وكان من قبل مستمتعا بنجاح كبير في الأوساط الشعبية بكتابه المنشور عام (١٩٩٥) : "فكرة داروين الخطيرة".

أما البروفيسور الجامعي بجامعة أوكسفورد "ريتشارد دوكينز" فهو عالم مشهور في مجال علوم الأحياء التطورية. ساهم كتابه "الجين الأناني" المنشور عام (١٩٧٦) في زيادة شعبية وجهة نظر نظرية التطور التي تركز علىٰ عمل الجينات (التي طورها علماء علوم الأحياء أمثال "ويليام هاميلتون" و"جورج ويليامز" و"جون ماينارد سميث" و"روبرت تريفرز") وقدم مفهومه الخاص عن "الميمات" Memes وهي رموز النقل الخاصة بالميراث الثقافي والتي تؤثر في المجتمعات بمثل ما تؤثر

الجينات في عملها في الجسم الحي(١)؛ ناقش في كتابه "النمط الظاهري الممتد" The Extended Phenotype عام (١٩٨٢) فكرة أن النمط الظاهري للكائن الحي ليس مقتصرا علىٰ سمات جسده، ولكنه يمكن أن يمتد إلىٰ بيئته، وأن يُحدث تأثيرات في أجساد كائنات حية أخرىٰ؛ أما كتابه "صانع الساعات الأعمىٰ" The Blind watchmaker المنشور عام (١٩٨٦) فقد دافع فيه عن الداروينية وانتقد "الحُجة المبنية علىٰ التصميم" كما قدمها "ويليام بالي" (عالم اللاهوت الذي درس داروين كتاباته عندما كان طالبا في مادة اللاهوت بجامعة كامبريدج) .

لقد فاز ثلاثة من هؤلاء الكُتاب الأربعة ببعض الشهرة (بدرجات مختلفة) من قبل أن تظهر كتبهم الجديدة - باعتبارهم مدافعون عن الإلحاد - علىٰ الرغم من عدم تمكنهم من جذب الكثير من الانتباه بسبب التمثيل الكارثي الذي قدمه الرئيس "بوش" للتقوىٰ المسيحية.

لقد كان "دوكينز" معروفا في إنجلترا بلقب المتحدث الرئيس عن الإلحاد والإنسانوية العلمانية، وبهذه الأهلية في أغلب الأحوال كان يشارك في النقاشات ويظهر في وسائل الإعلام. أما "هيتشنز"، فإنه علىٰ الرغم من كونه صحفيا سياسيا في الأصل، فقد كان ينشر الكثير من المقالات والكتب يدافع فيها عن الإلحاد(٢) وينتقد

---

(١) يقول "دوكينز" في كتابه "الجين الأناني" عام (١٩٨٩) ص ١٩٢ : "إننا بحاجة إلى اسم للناسخ الجديد، اسم ينقل فكرة (وحدة) للنقل الاجتماعي أو (وحدة) تقليد. كلمة "ميميم" Mimeme تأتي من جذر يوناني مناسب، ولكنني أريد كلمة أحادية المقطع تشبه في نطقها كلمة "جين" قليلا، أرجو أن يسامحني أصدقائي التراثيين إذا ما قمت باختصار كلمة "ميميمي" إلى "ميم". إذا كان فيما أقوله أي عزاء، فإنه يمكن التفكير فيها بشكل بديل ككلمة متعلقة بـ "ميموري" Memory، أو إلى الكلمة الفرنسية même التي تعني "متشابه". إن هذه الكلمة لابد أن يتم نطقها لتناسب سجع كلمة "كريم" cream".

(٢) على سبيل المثال، يقول "كريستوفر هيتشنز": "اللورد والنخبة : إنهم أذكى من أن يؤمنوا بالله، ولكنهم جميعا يؤمنون بالأديان" - مجلة هاربر Harper، يوليو (١٩٨٢) ص ٦٠ : ٦٣.

فيها الشخصيات الدينية المشهورة مثل الأم "تيريزا"[١]. قام "دينيت" في كتابه "فكرة داروين الخطيرة" بوصف عملية الانتخاب الطبيعي على أنها عملية لوغاريتمية من استخدام الطبيعة، وهي تمثل للتفكير الإنساني "حمضا عالميا" يسبب تآكلا في المفاهيم التقليدية. لقد قام بالتمييز بين (أ) "خطاطيف الروافع" الإعجازية (وهي مصادر مزعومة للتعقيد التصميمي ليست مبنية على طبقات أدنى وأبسط) و(ب) "الروافع"، وهي مفاهيم على الرغم من أنها ثابتة وصلبة في "أرض" العلم الفيزيائي إلا إنها تسمح ببناء كيانات معقدة؛ وقد قال أن "الخلق" ومفهوم "التصميم الذكي" هي أمثلة رئيسة على نظريات تعتمد على "الخطاطيف" في تفسيراتها، بينما تعد نظرية "داروين" عن التطور من خلال الانتخاب الطبيعي مثالا رئيسا على نظرية تعتمد على "الروافع".

في هذا المقال سأناقش كتاب "هاريس" : "نهاية الإيمان"، وكتابه "رسالة إلى أمة مسيحية"، وكتاب "دينيت" : "كسر التعويذة"، وكتاب "دوكينز": "وهم الإله"، وكتاب "هيتشنز": " الله ليس عظيما".

وبالرغم من أن وصف "الملحدين الجدد" كان (بقدر ما أعرف) قد استخدم أولا في عام (٢٠٠٥) بواسطة صحفي[٢] كان يكتب عن "ميشيل أونفراي"[٣] و"جوليان

(1) Hitchens : The Missionary Position : Mother Teresa in Theory and Practice (verso books, 1995).

(2) Ronald Aronson, “Faith no more” in BookForum , October / November 2005, pp.16-19.

(3) Michel Onfray, Traité d'athéologie (Grasset, 2005; tranlsated by Jeremy Leggatt as Atheist Manifesto: The Case Against Christianity, Judaism, and Islam (Arcade Publishing, 2007).

باجيني"[١] و"إيريك جاي ويلينبيرج"[٢] و"دانييل هاربور"[٣] بالإضافة إلىٰ "هاريس"، فإن أعمال هؤلاء الكُتاب - مهما كانت أهميتها - قد فازت بالقليل من الاهتمام نسبيا، وفي ذات الوقت قامت وسائل الإعلام السائدة باختيار هذا الوصف من خلال استخدام صحفي آخر له في عام (٢٠٠٦) من أجل وصف كل من "هاريس" و"دينيت" و"دوكينز"[٤].

كان كتاب "سام هاريس": "نهاية الإيمان" أول الكتب التي نالت نجاحا كبيرا بين كتب الملحدين الجدد. وهي كتابات تدافع عن العقل وتفضله علىٰ الإيمان، وتنادي بجهاد علماني علىٰ دين الإسلام، وتقوم بالإطراء علىٰ مذاهب روحانية شرقية معينة تتواءم مع الإلحاد. دفاع "هاريس" عن العقل مقابل الإيمان يذكرنا بشكل كبير بالكتابات القديمة مثل كتاب "برتراند راسل": "لماذا لست مسيحيا" والذي لست في حاجة إلىٰ مناقشته مطولا في هذا الموضع. ولكن كانت فيه حُجة مثيرة للاهتمام مفادها أنه بينما يمكن أن يكون الاعتدال الديني مفضلا عن الأصولية الدينية والتطرف، فإن المعتدلين الدينيين لا يقومون بتضليلنا فحسب لكي نحترم "فكرة أنه يمكن تقبل مقترحات خيالية معينة بدون دليل" بل يتسببون - ولو من غير قصد ومن

(1) Julian Baggini, Atheism: A Very Short Introduction. (Oxford Univ. Press, 2003).

(2) Erik J. Wielenberg, Value and Virtue in a Godless Universe (Cambridge Univ. Press, 2005).

(3) Daniel Harbour, An Intelligent Person's Guide to Atheism (Duckworth Publishers, 2001).

(4) Gary Wolf, “The church of the non-believers,” in Wired Magazine (November 2006); text available at : http://www.wired.com/wired/archive/14.11/atheism.html.

بين أشياء أخرىٰ كذلك - في تشتيت انتباهنا عن الدور الذي يلعبه الإيمان الديني في تكريس الصراعات الإنسانية. وفي حين نجد "هاريس" انتقادي جدا فيما يتعلق بالديانات النظامية في الغرب، إلا أنه يعتبر أن الإسلام يستحق اللوم أكثر من غيره، ويأخذ علىٰ محمل الجد البالغ نظرية "صدام الحضارات" التي انتشرت خلال السنوات الأخيرة علىٰ يد "صمويل هنتينجتون"[١]. يقول "هاريس" أن الإسلام في حد ذاته كدين قد سبب معظم الإرهاب الذي ينبغي أن يقلق المرء بشأنه، وأنه يمثل تهديدا للحضارة بشكل أكبر بكثير من الديانتين اليهودية والنصرانية، لأنه (علىٰ حد زعمه) لم يمر أبدا مثلما مر غيره بمرحلة إعادة الإصلاح أو التنوير. إنه يقول هناك العديد من النصوص في القرآن التي تحض علىٰ العنف باسم الله، وأنه بينما يضطر المسيحيون الذين يؤيدون العنف إلىٰ تحريف كلام المسيح، فإن نظراؤهم المسلمون لا يضطرون لمثل ذلك الفعل. يقول "هاريس" :

"إننا في حرب مع الإسلام. ربما لا يخدم ذلك أهدافنا السياسية المباشرة إذا ما قام زعماؤنا السياسيين بالاعتراف بهذه الحقيقة بشكل مفتوح، ولكنه فعلا كذلك بشكل لا لبس فيه. إن الأمر ليس فقط أننا في حرب مع دين مسالم قد "اختطف" بواسطة المتطرفون. إننا في حرب بالضبط مع رؤية الحياة التي يصفها القرآن للمسلمين والتي توضحها الأحاديث النبوية بشكل أكثر تفصيلا عن طريق حكاية الأقاويل والتعاليم الخاصة بالنبي "[٢].

---

(1) Samuel P.Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (Simon and Schuster, 1996).

(2) Sam Harris, The End of Faith; Religion, Terror, and the Future of Reason (W. W. Norton, 2004), pp.109-110.

ويقول أيضا :

"لرؤية الدور الذي يلعبه الدين في ترويج العنف الإسلامي، نحتاج فقط إلىٰ معرفة لماذا يتشوق العديد من المسلمين إلىٰ تحويل أنفسهم إلىٰ قنابل هذه الأيام. الإجابة: لأن القرآن يجعل من هذه الممارسة تبدو مثل فرصة لمستقبل وظيفي أفضل(١). لا يوجد في التاريخ الاستعماري للغرب ما يفسر هذا السلوك (بالرغم من أننا نعترف بالتأكيد بأن ذلك التاريخ يقدم لنا الكثير مما يجب أن نقوم بالتكفير عنه). إذا قمت بحذف إيمان المسلمين بالشهادة والجهاد، ستصبح العمليات الانتحارية غير ملحوظة علىٰ الإطلاق. إن أي شخص يقول : "ليس هناك علاقة بين تعاليم الإسلام وبين الإرهاب" هو فقط يتلاعب بالألفاظ"(٢).

---

(١) بغض النظر عن التفجير الانتحاري لـ "جبهة التحرير الإلحادية السويدية" (SALF) في استكهولم (٢٠١٣) وقتل ١٨ لأدريا وإصابة ٣٠ : فالحقيقة أن العرض الاختزالي والشيطنة المقصودة للإسلام ونصوصه (قرآنا وسنة) كانت مقصودة إبان الهجوم الأمريكي على أفغانستان (٢٠٠١) إثر هجمات ١١ سبتمبر، ثم العراق (٢٠٠٣) بحُجة إخفائها لأسلحة دمار شامل (وهو ما اتضح كذبه فيما بعد)، حيث تم تصوير الإسلاميين بشكل متعمد (عن طريق اليمين المتطرف والملحدين الجدد) وكأنهم المصدر الأكبر لعمليات العنف والتفجيرات الانتحارية في العالم لقتل الأبرياء، في حين أن تقارير الـ FBI نفسها أبرزت أن نسبة أعمال العنف داخل أمريكا منذ عام (١٩٨٠) إلى (٢٠٠٥) كان ٩٤% منها على يد غير مسلمين !
https://www.fbi.gov/stats-services/publications/terrorism-2002-2005
وحتى في أوروبا التي يستغل "هاريس" حادثة تفجيرات صحيفة "تشارلي إبدو" الشهيرة بها عام (٢٠١٥) كذريعة لوصم الإسلام ونصوصه بالعنف تبين أيضا أن ٩٠,٦% من أعمال العنف فيها هي لغير مسلمين !
Europol Report: All Terrorists are Muslims…Except the 99.6% that Aren't.
http://www.loonwatch.com/files/2010/01/terrorism-in-europe
الغريب هنا أننا لا نجد "هاريس" يتوجه بالنقد إلى جرائم الملحدين في العالم والتي راح ضحيتها قرابة ١٠٠ مليون إنسان في القرن الماضي فقط (مثل "ستالين" و"ماوتسي تونج" و"بول بوت") ! وكذلك لا يتعرض لجرائم أمريكا وإسرائيل (وقد انتقده الكثير من الليبراليين مثل "غلين غيرنوولد" على هذه الازدواجية المكشوفة)، أيضا انتقدوه في تصويره المتطرف للإسلام على أنه دين عنف وأن المسلمين إذا امتلكوا قنبلة نووية فلن يتأخروا في استخدامها لمحو أعدائهم (ولذلك يرى أنه وفق هذا الوضع يكون استباق المسلمين بضربة نووية لإبادتهم - حتى الأبرياء منهم - يصير مقبولا) ! انظر كتابه "نهاية الإيمان" ص ١٢٩ حيث يتجاهل بذلك الافتراض عشرات نصوص القرآن والسنة للتأكيد على حق غير المسلمين في العيش والحماية داخل بلاد الإسلام، بل وفي الحروب نفسها : حق الأبرياء غير المسلمين أيضا في عدم التعرض إليهم(ح).

(2) Ibid., pp.32-33.

وفقا لـ"هاريس"، فإن "محمدا" لم يقم فقط بتأييد العنف، ولكنه كان أيضا - وفق روايات النبي نفسها - ممارسا له ومتفوقا فيه. ويعتبر "هاريس" أن الإسلام هو أكثر الأديان تعصبا بين أديان العالم الكبرىٰ. ولذلك، وبالرغم من أنه انتقادي جدا فيما يتعلق بالتطرف الديني المسيحي للرئيس "بوش"، فإنه يقول أن إدارة "بوش" لم تكن مسلحة بما يكفي في مواجهة الإرهاب الإسلامي، ويقدم حُجة فلسفية (حيث درس "هاريس" الفلسفة أثناء دراسته الجامعية) مفادها أن استخدام التعذيب هو شيء مسموح به أخلاقيا في تلك المعركة[1].[2] إن النقاش المتعمق للحُجج التي يقدمها "هاريس" بشأن ذلك الموضوع - علىٰ الرغم من أهميته - أكبر مما يتسع له هذا المقال[3]، لذلك دعوني أنتقل إلىٰ جانب آخر في كتاب "هاريس". في فصل "تجارب الوعي" (بما فيه التعليقات الموجودة بالحواشي). يلاحظ "هاريس" حقيقة أن طوائف روحانية شرقية معينة تتواءم مع الإلحاد. وذلك في حد ذاته ليس محل اختلاف بشكل خاص؛ لوجود بعض مدارس الفلسفة الهندوسية والكثير من المدارس البوذية تمارس الإلحاد الصريح. ولا يجب أن يسبب اعتناق "هاريس"

---

(1) Ibid., pp.192-199.

(٢) فلنتخيل لو قال ذلك أحد المسلمين ماذا كان سيقول عنه الملحدون والإنسانيون ؟ مع العلم أن التعذيب منهي عنه في الإسلام بنصوص صريحة وبشكل عملي من النبي ﷺ وصحابته(ح).

(٣) هروب جيد من الكاتب لعلمه بعجزه عن التبرير مهما قال، أما الرد على جميع ادعاءات ومزاعم "هاريس" المتراكمة لتشويه الإسلام وتبرير الهجوم الأمريكي والعالمي عليه لن يتسع له المقام للأسف، وقد استفز الأمر ملحدين وليبراليين أنفسهم (مثل الملحد "سي. جي. ويرليمان" الذي ترجم له مركز "دلائل" كتاب "مهددات الإلحاد الجديد") فتناولوا بالتحليل المحايد علاقة حركات المقاومة والجهاد الإسلامية بردود الفعل السياسية والانتقامية في وجه الاعتداءات والاحتلال والقتل والتفجير في بلدان المسلمين، وأنها رد فعل طبيعي ومتوقع لأي شعب أو جهة أو دين يوضع في نفس مكانهم (أي الأمر لا يتعلق بآيات معينة أو أحاديث)، حتى أنهم يسوقون في ذلك قصصا واقعية لشباب غربي وأوروبي انضم لتلك الحركات فقط لاستشعارهم بالظلم الغاشم في بلدانهم، فقرروا السفر والانتقال إليهم للدفاع عنهم أو الانتقام معهم وهم حتى لا يحسنون قراءة اللغة العربية فضلا عن القرآن أو السنة، في حين نجد في المقابل أن خطاب الكراهية العدائي لأمثال "هاريس" و"دوكينز" لكل ما هو ديني (خاصة الإسلام كما أوضحنا) كان السبب في مقتل ٣ من الشباب الجامعي المسلم المسالم في "تشابل هيل" عام (٢٠١٥) على يد ملحد متعصب تشبع بأفكار الملحدين الجدد ! (ح).

لممارسة التأمل إزعاجا للكثير من الملحدين أو المفكرين الإنسانيين، لن يقوم منهم إلا عدد قليل لتحدي دعوته إلىٰ المزيد من البحث العلمي عن التأثيرات النفسية والجسمانية للمارسات الروحانية المختلفة. ولكن العديد من الملحدين غاضبون حقا بشأن حُجته القائلة بأن هناك أنواع معينة من الممارسات الصوفية الروحانية الشرقية ليست فقط "عقلانية" ولكنها أيضا "علمية" ويمكنها أن تكشف حقائق كثيرة عن الواقع خارج أجسادنا.

يتحدىٰ "هاريس" صراحة الرأي القائل بأن الوعي ينبع من المخ بالضرورة. بينما يبدو معظم علماء الأعصاب وفلاسفة العقل المعاصرين يعتنقون شكلا أو آخر من المذهب الفلسفي الفيزيائي، نجد "هاريس" -كونه طالب في علم الأعصاب- لا يرىٰ أساسا علميا للزعم بأن الوعي عملية معتمدة بشكل تام علىٰ عمل الجهاز العصبي المركزي(١). فهو يقول:

"إن الحقيقة هي أننا ببساطة لا نعرف ما الذي يحدث لنا بعد الموت"(٢).

---

(١) كتب المؤلف هذا المقال قبل صدور كتاب "سام هاريس" في (٢٠١٢): "الإرادة الحرة"، حيث كعادة الملحدين في تخبطهم وتناقضهم ومغالطاتهم المنطقية في محاولة تمرير أفكارهم، فقد حاول "هاريس" التملص من مسؤولية الإرادة الحرة، فزعم تأثرنا جميعا بعوامل خارجية سابقة على قراراتنا وما نظنه اختياراتنا، وهذا الزعم منه يطعن - أول ما يطعن - في المسؤولية القضائية على أي مجرم وتبرئة ساحته مما اقترفت يداه باختياره! وهكذا كان ترويج "هاريس" لحُججه ضعيفا لدرجة لا تحتمل (وهو ما يظهر بعد ذلك في لقاءاته وفيديوهاته المصورة)، حيث يتعمد خلط الأوراق حينما يحاول الاحتجاج بأنك (لن تفكر في اختيار معين قبل أن تتعرض له)! ونسي أن هذا هو الطبيعي والمنطقي بالفعل إذ: كيف سأفكر أو أختار شيئا وهو لم يحدث بعد ؟! فقام بوضع (التفكير) موضع (الاختيار) لإرباك القارىء، والصواب أن الإنسان لا يتحكم بالفعل فيما يقع له من ظروف ومواقف في حياته، لكنه يملك حرية الاختيار فيما بينها بعد وقوعها، ولو كانت استجابات البشر جبرية لا اختيارية: لكانت تساوت ردود أفعالهم جميعا في نفس الظروف، وهذا ما لا نراه أصلا في حياتنا، إذ ليس كل فقير مثلا يسرق أو يقتل، هناك من يعمل ويصبر أو يشق طريق النجاح، لذلك في المجمل نجد طرح جميع الملحدين في مسألة الإرادة الحرة متناقض أشد ما يكون التناقض، إما في تصادمه مع ما يستشعره كل منا من امتلاكنا الموضوعي الحقيقي لإرادة حرة واختيار (الملحدون أنفسهم يكتبون كتبهم لكي يغير القراء من اختياراتهم! فلو صح كلامهم لما كان في رفضنا لكتبهم أي لوم!)، وإما في تصادمه مع المسؤولية القضائية بلازم قولهم، وهو ما يرفضه كل إنسان عاقل وجميع محاكم ودساتير العالم(ح).

(2) Harris, op. cit., p.208.

إنني قد أسلم أنه من الممكن منطقيا بالنسبة لملحد أن يؤمن بالخلود، أو بالنظر لهذه المسألة، بإرادة حرة سببية (كان الفيلسوف البريطاني التابع للمذهب المثالي "جي إم إي ماك تاجرت" J.M.E. McTaggart ملحدا يؤمن بالخلود[١]، أما "جان بول سارتر" فقد كان لا يؤمن بالله ولا بالخلود، ولكنه مع ذلك كان يقبل نظرية الإرادة الحرة السببية)[٢] ولكن معظم الملحدين الغربيين يؤمنون بالفلسفة الطبيعية، ولذلك فإنهم يشعرون بالتضارب بين إنكار وجود الله وبين الأمل في حياة بعد الموت. القلق المتعلق بأن تكون التفسيرات العلمية الجيدة شحيحة وجوديا يدفع الكثير من الطبيعيين إلىٰ أن يكونوا متشككين، ليس فقط في التعريفات المتعلقة بالكيانات الروحية، ولكن أيضا بشأن رؤية الوعي كشيء يتجول في محيط ما بعيدا عن مكانه داخل المخ؛ وبالرغم من ذلك، إذا كان لا يمكن للوعي أن يتواجد بمعزل عن المخ، إذن عندما يموت أحدهما، لابد أن يتبعه الآخر. كما علق "هيوم" حوالي عام (١٧٥٥) :

"إن ضعف الجسد وكذلك ضعف العقل في فترة الطفولة متناسبين بشكل تام؛ حيويتهما في سن النضوج، واضطرابهما الحساس في حالة المرض، واضمحلالهما التدريجي معا في سن متقدمة. ويبدو كأن الخطوة التالية قادمة لا محالة : تحللهما معا بعد الموت"[٣].

---

(1) J. M. E. McTaggart, Some Dogmas of Religion (Edward Arnold, 1906).

(2) Jean-Paul Sartre, L'existentialisme est un humanisme (Nagel, 1946).

(3) David Hume, "On the immortality of the soul," in Paul Edwards, ed., Immortality (Macmillan, 1992), pp.134-140; text available also at : www.anselm.edu/homepage/dbanach/suicide.htm#A2.

أثار كتاب "هاريس" (نهاية الإيمان) جدلا واسعا في أوساط الملحدين والإنسانويين العلمانيين- أو علىٰ الأقل بين هؤلاء الذين نشروا المقالات النقدية عنه بنفس القدر الذي أثاره في أوساط المتدينين. إنه يسلم بأن استخدامه لتعريفات مثل "الروحانية" و"الصوفية" (و بالأخص "الصوفية العلمية" و"الصوفية العقلانية") قد يسبب الالتباس، ولكنه يدافع عن ذلك بحُجة أن هناك نقصا في التعريفات البديلة الجيدة. لم أكن لأعارض تلك الحُجة بقوة بالرغم من أن هناك كُتاب آخرون معاصرون، مثل "توماس كلارك"[(١)] قد كتبوا بشكل فعال عن "الروحانية الطبيعانية"[(٢)]؛ وأوافق علىٰ أن هناك آثارا نافعة للمواظبة علىٰ أنواع معينة من الممارسات الروحية؛ ولكنني لا أوافق أبدا علىٰ استعداد "هاريس" لمنح الفضل بالجملة هكذا للصوفية الشرقية.

قام "هاريس" بالرد في "رسالة إلىٰ أمة مسيحية" عام (٢٠٠٦) علىٰ النقاد المسيحيين الكثيرين الذين انتقدوا كتابه "نهاية الإيمان"، وخصوصا علىٰ المتعصبين منهم. هذا الكتاب الحديث له يقدم ذخيرة من الحُجج ضد مواقف المسيحيين المحافظين في عدد كبير من المواضيع المتنوعة، من "التوحيد مقابل الإلحاد" إلىٰ

---

(1) Thomas W. Clark, “Spirituality without faith,” in The Humanist, LXII/1 (January/February 2002); text available also at : www.naturalism.org/spiritua1.htm.

(٢) يشير المذهب الطبيعي أو الطبيعاني naturalism إلى اعتقاد عدم وجود شيء إلا ما تمثله الطبيعة المحسوسة ويمكن رصده ماديا بأدواتنا ومقاييسنا، ولذلك يعادي هذا المذهب كل ما هو ديني غيبي (أو ميتافيزيقي أو ما وراء الطبيعة) مثل الإله والوعي والروح وغيرها لأنها في نظره غير قابلة للرصد، لكن لما كان أغلب البشر وعلى مر العصور يؤمنون إيمانا راسخا بوجود كل ذلك ولديهم من الأدلة عليه الكثير (أدلة الأثر على المؤثر حتى لو لم نر المؤثر) فقد عمد الملحدون والطبيعانيون إلى محاولة وضع تفاسير (مادية) لكل ذلك حتى لا يقال أن العلم المادي لم يجد لتلك الآثار تفسيرا، لكن يبقى كل ما وضعوه من تفاسير متناقضا ناقصا عاجزا في الحقيقة عن مقاربة حتى ما يقدمه الدين من تفسيرات قوية متوافقة مع العلم والعقل(ح).

"التطور مقابل الخلق" إلىٰ الأخلاقيات الطبية (فيما يتعلق بالإجهاض وأبحاث الخلايا الجذعية)، وهو يبين أن الأخلاقيات المستقاة من النصوص هي أخلاقيات غير متماسكة بسبب تناقض الوصايا في الكتاب المقدس. وإذا ما أعطي وصيتين متناقضتين، يلجأ المؤمن عادة إلىٰ نسبة وصية واحدة منهما إلىٰ الكتاب المقدس، يختارها وفقا لحاسته الأخلاقية؛ وهذا منطق يدور في دائرة مفرغة.

يقدم كتاب "دانييل دينيت": "كسر التعويذة: الدين كظاهرة طبيعية" تفسيرا علميا للتدين. يقول "دينيت" أنه من غير الضروري أن نستدعي أي نوع من أنواع الكيانات أو القوىٰ فوق الطبيعية (مثل الآلهة أو الكائنات الخفية) من أجل تبرير وجود الدين، وأن تطوير الفهم العلمي له في غاية الأهمية بسبب أهميته الاجتماعية والثقافية الكبيرة. إنه يقول إن هذا الكتاب موجه للأمريكيين بشكل أساسي - وليس إلىٰ الأكاديميين فقط ولكن كذلك إلىٰ **"المواطنين الذين يملكون الفضول والضمائر الحية"** بشكل عام - وأن هناك من غير الأمريكيين ممَّن أطلعهم علىٰ مسودة الكتاب فوجدوه مختصا بمخاطبة مَن داخل الحدود الأمريكية؛ ولكن:

"حتىٰ هذه اللحظة، كان هناك (في الولايات المتحدة) اتفاقٌ مشتركٌ لم يُثبتوا صحته علىٰ ألا يتعرض العلماء والباحثون الآخرون للدين، أو أن يكتفوا ببضع نظرات جانبية فيه، بسبب انزعاج الناس بشكل كبير من مجرد التفكير في فحص الدين بشكل أكثر كثافة. إنني أقترح مقاطعة هذا الافتراض وفحصه جيدا".[١]

---

(1) Daniel Dennett, Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon (Viking, 2006), p.xiii.

(إذن، فإنه يخاطب القارئين غير الأكاديميين، وأيضا يحاول إقناع الزملاء الأكاديميين بالشروع في استقصاء علمي من نوع معين).

ينقسم الكتاب إلىٰ ثلاثة أجزاء رئيسة. يحتج الجزء الأول بأن العلم يستطيع ويجب عليه أن يبحث في الدين. والجزء الثاني يوضح كيف أنه من الممكن استخدام بعض طرق علم الأحياء التطوري وبالأخص علم النفس التطوري و"ميمات دوكينز" Memetics في تطوير نظريات تصف كيفية تطور الأديان المعاصرة من المعتقدات الشعبية القديمة. ويركز الجزء الثالث علىٰ تأثيرات الدين في الوقت الحالي، حيث يخاطب موضوعات مثل الأخلاق وبحث الإنسان عن معنىٰ لحياته .

لابد أن يتجنب المرء أشكالا معينة من سوء الفهم عند تقييم مشروع "دينيت". يقول أحد المعلقين في مقالته بأحد الصحف الدينية :

"إنه لا يستقيم منطقيا أن نقول ببساطة بما أن الدين هو ظاهرة طبيعية فهو بالتالي لا يمكن أن يكون وسيطا لنقل الحقيقة الإلهية، أو أنه لا يقود بشكل ما إلىٰ حقائق علوية. إن الاعتقاد بذلك يؤدي إلىٰ الوقوع في مغالطة الجينات، وهي معضلة منطقية تفيد بأن المرء يحتاج فقط إلىٰ تحديد التسلسل السببي الذي يؤدي إلىٰ وجود الكائن ومن ثم تحديد طبيعته ومعناه ومحتواه واستخداماته أو قيمته".(١)

ولكن "دينيت" ينفي وجود أي محاولة في كتابه لإثبات عدم صحة المعتقد الديني، إنه لا يحاول إثبات أن تفسير الدين علميا - حتىٰ لو تم تحقيقه - سينفي

---

(1) David B. Hart, "Daniel Dennett hunts the snark," in First Things (January 2007); text available at : www.firstthings.com/article.php3?id_article=5394.

حقيقة أو مزاعم الدين، سواء بالخطوط التي يقترحها أو بخطوط أخرى، إن "التعويذة" التي يأمل بشكل رئيس أن يكسرها ليست تلك المتعلقة بالإيمان الديني، وإنما فكرة أن الدين يتجاوز حدود وقدرات البحث العلمي - ذلك التابو[١]- بالرغم من أنه شخصيا مهتم بكسر ما يطلق عليه "التعويذة الثانية"، وهي الدين نفسه. إنه يقول إن العديد من الناس لخوفهم من إضعاف التعويذة الثانية، يقاومون الجهود المبذولة من أجل كسر الأولى، ولكنه لا يرى سببا جيدا يجعلهم غير مستعدين لأن يقوموا بأنفسهم بالانخراط في بحث مثل الموجود في كتابه. إنني أستطيع تفهم مخاوفهم على أية حال. إذ بالدرجة التي يثبت فيها أن الدين قابل للتفسير العلمي، فإن ذلك ينتقص معقوليته إذا صارت الحقيقة التي يؤمن الناس عميقا بادعاءاتها يمكن حينها تفسيرها بدون إشارة إلى أي شيء فوق طبيعي.

إذا كان الله موجودا، فإنه من الممكن أن يكون قد استخدم آليات مثل الانتخاب الطبيعي للجينات وكذلك الميمات من أجل إنتاج بشر متفرغين لعبادته؛ ومع ذلك، فكلما زادت إنجازات الكشف العلمي عن الدين، كلما قلت الحاجة لافتراض وجود الله من أجل تفسير وجود الدين، وبذلك ستظل غالبا الظاهرة محل البحث كما هي في غياب كيان إلهي.

ولذلك، فإن التفسير العلمي - كما أظن - سوف يقلل معقولية ذلك الفرض - أن الأديان إلهية المصدر - بدون حتى أن يثبت بطلان دعوى حقيقيته.

---

(١) يمثل مفهوم التابو أو الطابوه Taboo الشيء الممنوع التعرض له أو تناوله بالنقد، وأشهر ما يكون هذا التابو هو في المحرمات المجتمعية سواء محرمات الدين أو محرمات العادات والتقاليد، وكذلك يتم استخدامه أحيانا في مجال السياسة ونحوه، وأصل الكلمة منقول من الشعوب البدائية (مثلما نقلها المستكشف "جيمس كوك" من جزر المحيط الهادي في رحلاته)، حيث كانوا يحرمون المساس ببعض الأشياء ظنا منهم أن المساس بها يطلق شرورها المقدسة أو الروحانية المخفية فيها(ح).

ولهذا، فإني أتوقع أن العديد من المتدينين سيقاومون محاولات "دينيت" لإبطال "اللعنة الأولي"[١]. يرىٰ "دينيت" في نفسه أنه يواصل محاولة "هيوم" لتطوير "تاريخ طبيعي" للدين.[٢]

إنه يرىٰ أن ميلنا إلىٰ الإيمان الديني له جذور متأصلة في أعماق الطبيعة الإنسانية، ويحاول أن يطبق نتائج علم النفس المعرفي وعلم النفس التطوري وعلم الأجناس البشرية التطوري لاكتشاف تلك الجذور. إنه يضع نظرية مبدئية عن كيفية تطور الدين. علىٰ عكس ما قد يتوقعه القراء المطلعون علىٰ آرائه العامة عن التطور، إنه لا يتشبث بالرأي القائل بأن التدين قد تطور لأنه كان نافعا للجنس البشري.

بل يرىٰ أنه كان نتاجا لعمليات تطورت من أجل أهداف أخرىٰ.

---

(١) رغم كل محاولات الملحدين واللادينيين لاختراع تفاسير وضعية علمية أو نفسية لظاهرة الدين الضاربة في جذور التاريخ منذ نشأة الإنسان وإلى اليوم (بل إلى اللحظة يتم اكتشاف آثار طقوس وجنائز لدى الأجناس البشرية القديمة مثل إنسان النياندرتال) : فتبقى محاولاتهم جميعا رهينة الفشل نتيجة مصادمتها للعقل والفطرة والمكتشفات العلمية والأبحاث الأنثروبولوجية (الإنسانية) الرصينة (مثل قولهم إن الدين كان مفيدا لأخلاق البشر وتعاونهم – أو قولهم إن الجهل بتفسير الظواهر الطبيعية جعل البشر يفترضون الآلهة – أو قولهم إن خوف البشر من الكوارث الطبيعية جعلهم يفترضون آلهة لتحميهم منها إلخ)، ولعلي هنا أكتفي بنقطتين بدهيتين فقط تمسان عقل ومنطق كل إنسان مهما كان مستواه الفكري والثقافي، الأولى نقطة أنه لكل مصنوع صانع حتى ولو لم نرى هذا الصانع، بل يمكننا معرفة بعض أوصافه ومدى عظمته بالنظر إلى صنعته في إحكامها وإتقان صنعتها، وفي تأدية كل جزء منها لوظيفته ليتكامل مع الأجزاء الأخرى لأداء مهامهم النهائية والغائية، فهذه الحُجة يستحيل أن يهدمها الملحدون واللادينيون مهما حاولوا التشغيب عليها لأنها من أساس العقل والتفكير، أما النقطة الثانية فهي أن اكتشاف أو فهم كيفية عمل الآلة أو الماكينة أو النظام : لا يعني أبدا نفي الصانع لهم ! فلو أعطينا مهندسا جهاز اتصال جديد يراه لأول مرة، ثم عكف عليه يدرسه حتى توصل إلى فهم كيفية عمله : فهذا لا يعني أبدا خروجه علينا ليقول : لقد فهمت كيفية عمله أخيرا، إذن ليس له صانع ! ومن هنا نفرق بين قولنا مثلا أن الله هو الذي ينزل المطر (لأنه واضع قوانين وأسباب نزول المطر) وبين قولنا أن المطر نزل بسبب تبخر المياه من المحيطات والأرض ثم تكثفه على شكل سحاب ثم تحريك الرياح له بفعل اختلاف مناطق الضغط الجوي إلخ .. فهذا كله شرح للكيفية والقوانين التي (جعلها الله) سببا لنزول المطر، ولا يعني فهمنا لها نفي وجود واضع هذه القوانين ومنشئها، وهكذا في كل شيء في الكون والمخلوقات، حيث وضع الله تعالى له من السنن والقوانين والثوابت ما يضمن عمله، إذن لا تعارض تماما مثل قولنا عن موت القاتل شنقا : مات بسبب جرائمه، أو مات بسبب اختناقه من حبل المشنقة(ح).

(2) Hume, The Natural History of Religion, published originally in 1757.

إنه يعتقد أنه قد نتج بشكل جزئي بسبب قابليتنا "المُركَّبة فينا Hardwired" للتأثر بالإيحاء النفسي الكامل أو شبه الكامل، وهي قابلية قد تطورت لأنها جعلت الأطفال مستعدين بشكل أكبر لتقبل ما يريد آباؤهم وكبار السن أن يتقبلونه، وبذلك فقد سهل تناقل المعلومات من جيل إلىٰ جيل آخر. لذلك يقترح أن هذه الخاصية كانت مفيدة ليس فقط لأنها ساعدت الأطفال علىٰ التعلم بشكل غير مباشر من تجارب كبار السن، ولكن أيضا لأنها (من بين أشياء أخرىٰ) ساعدت علىٰ تفعيل تأثير الدواء الوهمي الذي يمكن لكاهن القبيلة من خلاله جعل الجسم يحشد آليات الشفاء الذاتي[١].

يعتمد "دينيت" علىٰ أعمال خبراء الأنثروبولوجيا المعرفية مثل "سكوت آتران"[٢] و"باسكال بوير"[٣] اللذان يحتجان بأن الدين هو بمثابة دعامة ثانوية Spandrel (باستخدام الوصف الذي روج له "ستيفن جاي جولد" و"ريتشارد

---

(١) تعتمد الداروينية والتطور بجميع تفسيراتهما منذ "داروين" وإلى اليوم : على الخيال المحض في اختراع قصص وبناء سيناريوهات لتفسير الحاضر بماضي لم يره أحد وغير قابل للتكرار ولا الإثبات، وبما أن الداروينية والتطور تم وضعهما بالأصالة لاستبدال (الإله) و (الخلق)، فمع الوقت تم استدراجهما لتفسير كل ما يتعلق بالحياة والكائنات الحية والإنسان، بما في ذلك تفسير وجود المشاعر والعقائد والسلوكيات الفطرية والغرائز، وبذلك زادت رقعة (الخيال) المطلوبة لاختراع تفاسير مادية أو طبيعية بحتة لكل ذلك، ولا يخلو التفسير الواحد من عشرات الثغرات والتناقضات والأسئلة بلا أجوبة، مثلا في المثال أعلاه : من الذي قام (بتركيب) هذه الخاصية للتأثر بالإيحاء في مخ الإنسان ؟ وماذا عن أول إنسان : كيف تلقاها إذا كانت تنتقل عبر الأجيال ؟ وكيف لنا (من وجهة نظر علمية تجريبية بحتة) التأكد من هذا الافتراض أو رصده أو تجربته واختبار صحته ؟ هل هناك جزء خاص في المخ خاص بالإيحاء ؟ وهل يمكنه إصابة غيره بالعدوى أو انتقال الأفكار أو خصائص التفكير الإيحائي وقابليته ؟ وماذا عن أفكار الدين عند أول إنسان : من أين استقاها أو تم إيحاؤها إليه ؟ كيف اخترعها إذا لم يسبقه إليها أحد ليوحيها إليه ؟ وهكذا سلسلة ثغرات لا تنتهي(ح).

(2) Scott Atran, In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion (Oxford Univ. Press, 2002).

(3) Pascal Boyer, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (Basic Books, 2002).

ليونتين")[1] تأثير جانبي لمواءمات معينة (في هذه الحالة معرفية) تطورت لأسباب أخرىٰ. يحتج "آلتران" بأن لدينا ميل فطري لأنسنة العالم وإضفاء المعنىٰ القصدي / أو المتعمد عليه (ولذلك فإننا نعامل الناس الأخرين في العادة علىٰ أنهم كيانات لها مقاصد، أي كائنات تتصرف علىٰ النحو الذي تتصرف به بسبب أفكارها وتفضيلاتها). احتج "بوير" بأن الأديان تفترض علىٰ نحو مميز أن : (أ) هناك كيان واحد علىٰ الأقل فوق طبيعي يتخذ شكلا أنطولوجيا محددا (علىٰ سبيل المثال حيوان أو شجرة أو إنسان). (ب) شيء مختلف بصورة واضحة جدا تعتبر انتهاكا أنطولوجيا (علىٰ سبيل المثال: حيوان يتكلم، شجرة تسجل المعلومات، إنسان يولد من عذراء) و(ج) الكيان يمتلك معلومات استراتيجية يمكنه استخدامها إما لصالح أو ضد نفسه.

يحتج "دينيت" بأن معاملة "النظم" الأخرىٰ (أي، فيما عدا النظام نفسه) ككيانات لها مقاصد من شأنه بشكل خاص أن يكون له استجابة تكيفية إذا كانت تلك الكيانات محكمة البناء والوظيفة، ولكنه يطبق آراء "آلتران" و"بوير" لبيان كيف أننا معرضون للإفراط في استخدام هذا الحدس، وأية عواقب تترتب علىٰ ذلك. إن تلك الحُجة تتبع النهج التالي: علىٰ الرغم من أن قيامك بتوجيه صراخك إلىٰ السيارة إذا ما فشلت

---

(1) Stephen Jay Gould and Richard C. Lewontin. "The spandrels of San Marco and the panglossian paradigm: a critique of the adaptationist programme," in Proceedings of the Royal Society (1979), pp.581-598; see : www.aaas.org/spp/dser/03_areas/evolution/perspectives/Gould_Lewontin_1979.shtml.
ملحوظة : الرابط تم تغييره والمقال تم التعديل عليه كثيرا منذ نشره في (٢٠٠٦) آخرها تعديل في يناير (٢٠٢٠) ويمكن مطالعته من موقع أرشيف النت على الرابط التالي - اخترت رابطا من عام (٢٠١١) (ح) :- https://web.archive.org/web/20110322012940/www.aaas.org/spp/dser/03_areas/evolution/perspectives/Gould_Lewontin_1979.shtml وأنصح بنفس الشيء مع أي رابط لا يعمل

في تشغيل المحرك هو ليس سلوكا تكيفيا، وكذلك عند قيامك بتوجيه الركلات إلىٰ الكمبيوتر المعطل، فإنه بالنسبة لصياد يفكر في أن فريسته تخطط بشكل فعال لتجنب إثارة انتباهه: فإن ذلك سلوك تكيفي. لقد تطور تصور القصد لأن تلك الأنواع من الحيوانات التي حصلت عليه اكتسبت بذلك بعض المزايا التنافسية جعلتها تتفوق علىٰ أنواع أخرىٰ أو علىٰ مفترسيها. ولكن تصور القصد - بمجرد اكتسابه - يمكن أن يصبح مفرطا. إن إسقاط السمات البشرية علىٰ ظواهر طبيعية معينة - علىٰ سبيل المثال، النظر إلىٰ الشمس والنجوم باعتبارها كائنات حساسة وذكية- هو "استخدام فاسد" لتلك المهارة المعرفية؛ ومثل تلك الاستخدامات الفاسدة يمكن أن تكون مسؤولة عن الميل الإنساني لافتراض كيانات أسطورية تحكم العالم[١]. من الممكن أن يكون ذلك هو تفسير السبب الذي كان يجعل القبائل البدائية تميل إلىٰ اختلاق قصص الأرواح والتصديق بها، وأن يؤمنوا بأن الأرواح تفسر الظواهر من حولهم؛ وبذلك ظهرت "الأديان الشعبية" :

".... إن الأديان التي لا تملك عقائد مكتوبة، ولا علماء دين، ولا تسلسلات هرمية للرؤساء. قبل أن تخرج أي من الديانات النظامية الكبري إلىٰ الوجود، كانت العقائد

---

(١) رغم سذاجة الفكرة (أي اعتقاد إنسان أن الشمس التي لا تغير سلوكها يوميا وشهريا وسنويا : تمتلك حرية اختيار في أن تفعل أو لا تفعل – ونراها لا تفعل – وكذلك القمر والنجوم – وهو نفس ما احتج به "إبراهيم" عليه السلام ضد عبادتها كما في سورة "الأنعام" من آية ٧٥ إلى ٧٨) إلا أنه بافتراض إن هذا التفكير الساذج كان هو المؤثر في بزوغ فكرة الدين الشعبي عند الإنسان (البدائي) القديم، فالسؤال هنا: لماذا استمرت فكرة الدين رغم تطور تفكير الإنسان ؟ (حتى حسب سيناريوهات الداروينية والتطور) لماذا يوجد إلى اليوم مليارات المؤمنين ومنهم علماء مرموقين رغم انتشار علوم الفلك والفيزياء وبيان مكانة هذه الكيانات مثل الشمس والقمر والنجوم في الكون ؟ (أي لا تملك لنفسها شيئا ولا خرق النظام الموضوع لها ولا تضر ولا تنفع ولا حتى تتفاعل مع حياتنا، وكما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حادثة كسوف الشمس وتزامنها مع موت ابنه "إبراهيم") والشاهد : أنه يبقى دوما هناك أسباب منفصلة للإيمان بخالق (مثل السببية، واستحالة تسلسل المؤثرات إلى مالانهاية، ودقة صنع المخلوقات وقوانين الكون والعالم التي أشرت إليها في تعليق سابق وغيرها الكثير مما لا يتسع المجال لذكره)، وأن الأصل في الإيمان بهذا الخالق والذي يوافق العقل والمنطق والفطرة هو توحيده، في مقابل الشرك الذي يوافق هوى الناس أحيانا لمزايا دنيوية أو تخفيفات دينية(ح).



الشعبية موجودة، وكانت توفر البيئة الثقافية التي استطاعت الأديان النظامية أن تظهر فيها" (١)

يقترح "دينيت" أن الأديان النظامية انبثقت من الأديان الشعبية من خلال عمليات التطور "الميمية". الميمات Memes (التي يعرفها "دوكينز" بأنها وحدات لتوريث الثقافة تماثل الجينات) هي أفكار و/ أو ممارسات - تتضمن، علىٰ سبيل المثال، الأغاني والطقوس- تستطيع الانتقال والتضاعف من مخ إلىٰ آخر. النظرية التي يتشارك فيها "دينيت" مع "دوكينز" - مخترعها - هي أن الميمات تشكل الأساس للتطور الثقافي تماما مثلما تشكل الجينات أساس التطور البيولوجي. بعض الجينات تصبح أكثر شيوعا، حيث يتم اختيارها علىٰ أساس قدرتها علىٰ التكيف؛ والأمر مماثل بالنسبة للميمات.

يظن "دينيت" أن الأديان كظاهرة ثقافية يمكن فهمها علىٰ نفس النحو الذي يفسر به عمل الميمات، وأن تطورها كان خاضعا لقواعد التنوع والانتخاب مماثلة للقواعد التي تحكم التطور البيولوجي. وبذلك فإن الديانات الشعبية - مثل أشكال أخرىٰ من الثقافة الشعبية - كانت تتسم بآليات متنوعة، تشمل الغناء الجماعي والطقوس، لتؤكد ضمانة انتقالها من جيل (من الناس في ثقافة معينة) إلىٰ الجيل التالي. ولكنها في نفس الوقت قد تمر بطفرات- مثلما تفعل الجينات- حيث قد يكون معظمها غير قادر علىٰ التكيف، بينما بعضها الآخر قادر علىٰ التكيف بشكل أكبر من ميمات معينة أقدم منها، ولذلك فإنها تقوم بالانتشار علىٰ حسابها.

---

(1) Dennett, op. cit., p.140.

إن "دينيت" مثل "دوكينز"، ينظر إلىٰ "الميمات" علىٰ أنها "جينات أنانية". ولكن بينما يصر "دوكينز" علىٰ النظر إلىٰ الميمات الدينية بوصفها نوع من الفيروسات التي تنتشر علىٰ حساب مصلحة واهتمامات عائلها : يؤمن "دينيت" بأن انبثاق الديانات المنظمة من الديانات الشعبية جاء عقب تطور المجتمعات الزراعية. لقد سبب ظهور المجتمعات الزراعية تغييرا عميقا في البيئات التي وجدت بها الميمات الدينية. وفي ذات الوقت :

"الميمات التي تعزز تضامن المجموعات الإنسانية هي الأنسب بشكل خاص (كميمات) في الظروف التي تعتمد علىٰ نجاة العائل بشكل مباشر علىٰ تضامن العوائل في مجموعات قوية (وبالتالي كفاءة المجموعة العائلة). إن نجاح مثل تلك المجموعات المتخمة بالميمات هو نفسه أداة بث شديدة الفعالية، تتضمن الفضول لتجاوز حدود المجموعة (والحسد) وبذلك تسمح للحدود اللغوية والعرقية والجغرافية لأن تكون جاهزة للاختراق"[١].

وفقا لـ"دينيت"، فإن مع زيادة استقرار المجتمعات الإنسانية بسبب استخدامهم للزراعة (بدلا من الأعمال العادية)، بدأت التجارة في التطور بين المجتمعات، وبالتالي زاد عدد الوظائف، وأصبح العاملون بتلك الوظائف المتنوعة منظمون بشكل أكبر لكي يتمكنوا من استخلاص المزيد من فوائد التجارة المتزايدة، وبعد ذلك، أصبح رجال الدين والكهنة منظمين بشكل أفضل كذلك، وأصبحوا يسعون إلىٰ فرض احتكار شبه تام علىٰ الممارسات الدينية. لقد كان من مصلحة هؤلاء

---

(1) Ibid., pp.184-185.

المتخصصين أن يقوموا بتنظيم الممارسات الدينية والمعتقدات. لقد تطورت الميمات الخاصة بالمعتقدات الشعبية بدون إرشاد واعي، ولكن الميمات الخاصة بالديانات النظامية كان لها خادمان يقومان علىٰ "ترويضها". يورد "دينيت" مشابهة تقريبية بين ما حدث للميمات الدينية وما حدث لحيوانات معينة مثل الخرفان والبقر بمجرد أن تم استئناسهما. حيث بنفس الطريقة التي جنح بها مربو الحيوانات من البشر إلىٰ استبدال عمليات الانتخاب الطبيعي (بين الحيوانات) بالانتخاب الصناعي، كذلك فعل المختصون المحترفون في الدين – الكهنة – بدأوا بشكل واعي في هندسة وإعادة هندسة الميمات الدينية. عندها، وبعدما أصبحت المجتمعات طبقية بشكل متزايد، أصبح دور الدين مهما في تعزيز التماسك الاجتماعي. يستمد "دينيت" كلامه من عمل "جاريد دايموند"[(١)] الذي كان اقترح أن في أعقاب الثورة الزراعية الأولي، وقعت المجتمعات تحت سطوة وسيادة الكليبتوقراطية Kleptocracy [(٢)] حينما تطورت الانقسامات بين الأغنياء والفقراء، وأصبح الدين مُهما من أجل صيانة النظام الاجتماعي عن طريق جعل الفقراء يوطنون أنفسهم علىٰ الأوضاع التي يجدون أنفسهم فيها.

يُبدي "جيمس بروكفيلد"– وهو ناقد ماركسي كان قد علق علىٰ كتاب "دينيت"[(٣)]– إعجابه بمنهجه "المادي" ولكنه ينتقده لأنه أهمل المعالجة الماركسية

---

(1) Ibid., pp.184-185.

(٢) الكلِبتوقراطية كمصطلح: تشير إلى نظام حكم اللصوص، وغالبا ما تمثلها الأنظمة الديكتاتورية والاستبدادية التي تراكم الثروات والسلطات في يد قلة حاكمة، وقد تظهر كذلك في بعض الأنظمة الديموقراطية إذا تحولت مع الوقت إلى حكم الأقلية النافذة أو ما يعرف بالأوليجاركية(ح).

(3) James Brookfield, “Dennett’s dangerous idea,” at : www.wsws.org/articles/2006/nov2006/spel-n06.shtml.

للتاريخ الديني. يقول "بروكفيلد" أن تحليل "دينيت" تحليل مفيد في إطار عمل "دارويني جديد" ولكنه تجريدي بشكل مبالغ فيه، وكان من الممكن أن يستفيد أيضا من معاملة الدين كنوع من الأيديولوجيات يستمد جذوره من العلاقات الاقتصادية في المجتمعات الإنسانية. أعتقد أن "دينيت" قد أخذ بالفعل بعض تلك العوامل في حسبانه في استناده على عمل "جاريد دايموند"، لكن تحليل "دايموند" نفسه تجريدي إلى حد ما، وتنقصه الدقة التاريخية التي تميز أفضل الكتابات الماركسية عن الدين. لقد ركزت تلك الكتابات على كيف أن التطور الذي حدث للديانات النظامية كان متوقفا على الانقسامات الطبقية، وعلى الكيفية التي يتم عزو أغلب الصراعات الدينية – على الأقل بشكل جزئي – إلى الصراعات الاقتصادية الطبقية. لقد طبق "بروكفيلد" على "دينيت" نقد "إنجلز" لـ "فويرباخ":

"بشكل ما... هو واقعي – بما أنه يستمد بدايته من الإنسان – ولكن...هذا...يظل دائما نفس الإنسان المجرد الذي شغل المجال في فلسفة الدين"[1].

أعتقد أنه يجب على أكثر من ملحد من الملحدين الجدد، كما اقترح "رالف دوميان"[2]، أن يولي اهتماما أكبر بالفكر الاجتماعي المعاصر (سواء كان ماركسيا أم لا). إنني لا أقصد – على أية حال – أن أدعو إلى إعادة البحث في أحداث الحروب الاجتماعية البيولوجية في السبعينات والثمانينات؛ يبدو لي أن نوعية علم النفس

---

(1) Ibid., quoted from Frederick Engels, tr. Paul Taylor, Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy (Progress Books, 1946).

(2) Ralph Dumain, "On atheism, irreligion, and rationality," statement for a panel discussion in Washington DC, 19 May 2007; text available at : www.autodidactproject.org/my/atheism-DCIC.html.

التطوري التي ينادي بها كتاب "دينيت" والمنهج الماركسي الذي يفضله "بروكفيلد" يمكنهما تقديم وجهات نظر متكاملة وليست متناقضة(١).

يجب أن تتم قراءة كتاب "دينيت" الهام بنوع خاص من الصبر. الجزء الأول منه (الذي يقدم فيه قضيته الداعية إلىٰ البحث العلمي في الدين) يمكن - مثلما أعتقد- أن يتم اختصاره إلىٰ النصف بدون خسارة المضمون. الجزء الثاني (الذي يقدم فيه نظرياته المتعلقة بنشأة الدين وتطوره) يميل إلىٰ التطرق إلىٰ مواضيع جانبية، والتي - بالرغم من أنها في معظمها ذكية وغنية بالمعلومات- فإنها تشتت انتباه المرء وتصرفه عن الحُجة الأساسية. هناك العديد من الملاحق التي تحتوي علىٰ مواد محددة، من الواضح أن "دينيت" قد وجد أنها غير مناسبة لإدراجها في النص الأساسي؛ أعتقد أن ذلك النص كان يجب أن يكون أقصر من ذلك، وأنه كان يجب أن يتواجد - عند الحاجة - المزيد من الملاحق وربما - في النص الأساسي - بعض الفقرات المكتوبة بالخط الروماني الصغير. (وللإنصاف، لابد من ذكر التنظيم الجيد جدا والمختصر لمحاضرات "دينيت" الشفهية. والتي يتوفر بعضها علىٰ الإنترنت).

يقوم "ريتشارد دوكينز" بأداء العديد من الأمور المثيرة في كتابه "وهم الإله". إنه يصف - بشيء من التفصيل- "افتراضية الإله" ويقوم بتفنيد مجموعة مثيرة للإعجاب من الحُجج التقليدية التي تدعم وجود الإله: الحُجج الأنطولوجية، الحُجج الكونية، حُجج التصميم الذكي، حُجج من التجارب الشخصية، حُجج من

---

(١) لقد سعى "آلان كارلينج" إلى تجميع مواده التاريخية ووجهات نظره الداروينية الجديدة، انظر:
Social Division (Verso 1991), Analytical Marxism and Historical Materialism ; the debate on social evolution “in Science & Society 57/1 (Spring 1993), p31-65 and “the strength of historical materialism: a comment”, in Science & Society 58/1 (Spring 1994) pp.60-72.



الجمال، حُجج من النصوص، حُجج "بايسيان"[١] Bayesian، رهان "باسكال"[٢] Pascal's Wager. هناك القليل من المعلومات الجديدة هنا، ولكن ربما يجد العديد من القراء الكثير من المعلومات في رواياته الشيقة الصافية للحُجج وتفنيداتها. ثم يقدم حُجة جديدة (وإن كان يتقمص في ذلك روح "هيوم") متعلقة بعدم إمكانية وجود إله/ مصمم سماوي بالرغم من أن عالم الفلك "فريد هويل" تحدث ذات مرة في كتاب له بعنوان "التطور من الفضاء" (منشور عام ١٩٨٢) عن اعتقاده بأن احتمالية وجود خلية حية بسيطة دفعة واحدة نتيجة تركيب كيميائي اكتمل عن طريق الصدفة منذ وقت طويل علىٰ سطح الأرض (وهو ما لا يزعم أي عالم بيولوجي أنه قد وقع) : يماثل احتمالية تجميع طائرة بوينج ٧٤٧ من ساحة خردة بواسطة إعصار[٣]، احتج "هيوم" بأن عدم إمكانية الحياة لا يقتضي بالضرورة وجود مصمم؛

---

(١) تعتمد حُجج "بايسيان" أو احتمال "بايسيان" Bayesian probability على ما يسمى (أرجحية النظرية الافتراضية)، حيث يتم تقييم احتمالات فرضيات التفسير المقدمة (لذلك تتبع الاحتمالات الاستدلالية) ويعود الاسم لعالم الرياضيات واللاهوت "توماس بايس" في القرن ١٨، ثم صار من أشهر روادها عالم الرياضيات "لابلاس"(ح).

(٢) يعتمد رهان "باسكال" على أرجحية المكسب والخسارة بلغة الاحتمالات للإيمان أو الكفر بالإله، وقد وضعه عالم الرياضيات والفيزيائي الفيلسوف الفرنسي "بليز باسكال" في القرن السابع عشر، حيث أمامنا ٤ احتمالات : ١- الإيمان بالإله في حال كان هناك إله بالفعل (مكسب كامل لأن ثواب الجنة خالد) ٢- الكفر بالإله في حال كان هناك إله بالفعل (خسارة كاملة لأن عقاب النار خالد) ٣- الإيمان بالإله في حال لم يكن هناك إله (خسارة لا وزن لها في الدنيا لأن مشقة الدين في الدنيا محدودة العمر لا مقارنة بينها وبين الخلود) ٤- الكفر بالإله في حال لم يكن هناك إله (مكسب لا وزن له لأن متع التحرر من قيود الدين في الدنيا محدودة العمر لا مقارنة بينها وبين الخلود)، وبذلك يتبين بلغة الاحتمالات أن المكسب الكامل والأكبر والخالد يكون في الإيمان بالله، ورغم منطقية الاستنتاج وحيادية الطرح : إلا أن البعض حاول التشغيب عليه ببرهان مشابه يعتمد على المقارنة بين (التظاهر بالإيمان) وبين (الكفر بصدق) بدلا من مقارنة "باسكال" بين (الإيمان بالإله) وبين (عدم الإيمان بالإله)، والحقيقة أن غياب التماثل في الرهان يذهب بالتشغيب المرجو منه ها هنا، لأن المؤمنين يذمون (التظاهر بالإيمان) في الأصل ويعدونه (نفاقا) لا ثواب عليه أصلا، وهو يختلف عن (الإيمان) مع الصبر على المكاره والمشقات والصعوبات، فهذه قوة إيمان وليست نفاقا أو تظاهرا(ح).

(٣) رغم أن (فريد هويل) لا يؤمن بإله إلا أن ما قاله يعكس استحالة القدرات الخارقة التي ينسبها أو يدعيها الملحدون للصدف العشوائية والاحتمالات ! ويعد "دوكينز" أكثر من طرح هذه الأمثلة المستحيلة في كتبه لمحاولة إظهار أنها شيء (عادي) وله وزنه في الاحتمالات إذا ما افترضنا له نسبة ضئيلة (مثل احتمالية أن يلوح تمثال بيده ! أو تقفز بقرة إلى سطح القمر كما في كتابه صانع الساعات الأعمى ص ١٥٩ - ١٦٠) (ح).

ولكن اقتراحاته بشأن الاحتمالات البديلة كانت - بحكم الضرورة - تخمينية بشكل مفرط. بالرغم من أنها معقولة بدرجة أكبر من الافتراضية التي كان "هويل" سيرفضها[١]. لقد قدمت الداروينية في ذلك الوقت البديل القابل للاختبار العلمي والذي تم اختباره بشكل جيد لنظرية التصميم الذكي - وبذلك - يقول "دوكينز"- جعلت من المُجدي أن يكون المرء ملحدا لديه إشباع ثقافي كبير. يحتج "دوكينز" بأنه – إذا كان هناك مصمم/ خالق سماوي - فإنه يجب أن يكون أكثر تعقيدا من العالم الذي يخلقه، ولكن بما أنه كلما زادت درجة تعقيد النظام، فإن احتمالية وجوده تضعف، فإن نظرية التصميم الذكي تصف شيئا غير محتمل في ظل شيء آخر أكثر لامعقولية. يدحض "دوكينز" الحُجة الدينية بأن الله بسيط. من المفترض أن يقوم الإله الذي يؤمن به معظم المتدينين بالتفاعل مع العالم، وأن يتدخل في طرق عمله، وأن يتواصل مع مخلوقاته ويحكم بينهم، إلخ. مثل هذا الكيان، الذي يعالج كميات ضخمة بشكل لا يمكن تخيله من المعلومات، لابد أن يكون في غاية التعقيد؛ يستنتج "دوكينز" أنه من المؤكد تقريبا أن يستحيل وجود كيان مثل هذا[٢].

---

(١) تم وصفها كنسخة معدلة من الفرضية الأبيقورية والتي يكون فيها لبعض الترتيبات الصدفوية للذرات قدرة على تشكيل هياكل منظمة تستمر بمرور الوقت لأن نظامها يمنح مزايا البقاء. انظر :
Hume, Dialogues Concerning Natural Religion (first published posthumously in 1779). In Part VIII.

(٢) بغض النظر عن أننا لا نصف الله بالتعقيد : فمَن الذي حكم أصلا على خطأ هذه الصورة من التفسير ؟ لقد اعتقد الكثيرون في الماضي أن الكواكب والنجوم تسكنها أرواح تتحرك بها، وبهذا التفسير (البسيط) تأخر اكتشاف الجاذبية ومعادلاتها (المعقدة) آلاف السنين ! هل لو أمسك أحدهم هاتفا حديثا وفسر وجوده (ببساطة) بأن البحر يلقي مثله كل ألف سنة، وقال آخر أن إنسانا ولا بد صنعه بأدوات دقيقة و(معقدة)، فهل علينا قبول (الأبسط) وفق "دوكينز" ؟ (هذا المثال يكشف بالضبط ما يحاول "دوكينز" فعله من نسبة الكائنات والكون الدقيقين إلى الصدفة بدلا من الخالق بحُجة أنه سيكون (أعظم) و(أعقد)) بل وكل صنعة للإنسان يكون بعقله المعجز هو أكثر (تعقيدا) منها ! أيضا : من مساعي العلم الوصول إلى التفسير المقبول : ولم يشترط عاقل أننا لو لم نتعرف على ماهية أو مدى (تعقيد) هذا التفسير فإننا نرفضه ! فالعلماء يتقبلون مثلا حدث (الانفجار الكبير) كسبب لظهور الكون، رغم أنهم لا يعرفون ماهيته بالضبط ولا حتى مدى (تعقيده) نفسه مقارنة بالكون ! هذا ليس كلامي، ولكنه كلام فيلسوف العلوم الملحد "بيتر ليبتون" في انتقاده لشطحات "دوكينز" ! (ح).

إن نقاشه المتعلق بالأصول المتطورة للدين مشابهة بشكل كبير لنقاش "دينيت" (الرجلان صديقين ولهما تأثير اجتماعي كبير)، ولكنه يقتبس نتائج أبحاث وبيانات مختلفة عنه نوعا ما.

يناقش "دوكينز" أيضا، من بين موضوعات أخرىٰ، "المبدأ الإنساني" Anthropic Principle الذي يربط بنية الكون والثوابت الظاهرة في قوانين الطبيعة بالشروط اللازمة لتطور الجنس البشري(١).هناك نسخ متعددة من هذا المبدأ. وكلها تفيد بأن بنية وقوانين الكون يجب أن تكون موجودة بشكل يسمح بتكون العناصر الأربعة (الهيدروجين والكربون والنيتروجين والأكسجين) الضروريين من أجل الحياة كما نعرفها. لابد أن يكون الكون قديما بما يكفي - مثلا أن يكون عمره عشرة مليارات سنة - لكي تتطور الكائنات الحية المعقدة التي تعتمد علىٰ عنصر الكربون، ولكن ليس قديما لدرجة أن تندثر الشمس والنجوم الأخرىٰ وتصبح الظروف حينها مهلكة؛ هذه الحدود لها تطبيقات متعلقة بالمدىٰ الذي كان يمكن للكون أن يتمدد وفقا له منذ الانفجار الكبير، وأخيرا، ماذا عن دقة الثوابت الفيزيائية الأساسية؟

خذ ثابت الجاذبية لـ "نيوتن" علىٰ سبيل المثال، إذا انحرف ذلك الثابت ولو بشكل ضئيل عما هو عليه، فإن كوننا - وفقا للحُجة العلمية السائدة - لم يكن ليستطيع دعم نشوء الحياة كما نعرفها.

تميل بعض نسخ المبدأ الإنساني إلىٰ إحدي فرضيتين: إما وجود بناء غائي مقصود، وإما وجود مجموعة من الأكوان الاحتمالية المختلفة. وذلك يعني أننا نحيا

(١) ظهر المصطلح عام (١٩٧٣) بواسطة "براندون كارتر" وكان "روبرت هـ. دايك" قد نشر بعض الأفكار المتعلقة بعمر وحجم الكون في الخمسينيات انظر : http://en.wikipedia.org/wiki/Anthropic_Principle

على ظهر أحد تلك الأكوان الذي قد تكون خاصيته النادرة أنه يحتوي على خصائص فيزيائية تتيح للحياة أن تتطور.

وفي هذا السياق، فإن عددا قليلا جدا من العلماء (مثل "فريمان دايسون")[(١)] يرجح الغائية (أي وجود خالق أحكم إيجاد الثوابت الفيزيائية على أدق وجه)، ولكن عدد أكبر من العلماء يفضلون فكرة أن كوننا هو مجرد واحد من عدة أكوان، وأنه قد يكون لكل واحد من تلك الأكوان ثوابت فيزيائية مختلفة نوعا ما خاصة به و/ أو قوانين فيزيائية كذلك. إن نظرية الأكوان المتعددة تبدو مبالغٌ فيها من الناحية الأنطولوجية[(٢)]، ولكن "دوكينز" يحتج بما أنه سيكون لكل كون قوانين فيزيائية أساسية بسيطة، فإن المفهوم لا يتضمن فرض شيء غير محتمل إحصائيا. إنه يعتقد أن فكرة الأكوان المتعددة قد تعجب الناس الذين "ازداد وعيهم" بفهم وتقدير مبدأ الانتخاب الطبيعي. ولذلك فهو يصف النسخة التي اقترحها العالم الكوني "لي

(1) Freeman Dyson, “Time without end: physics and biology in an open universe,” in Reviews of Modern Physics 51, pp.447-460; text available at : www.aleph.se/Trans/Global/Omega/dyson.txt.

(٢) لا زالت لغة الاحتمالات تعاند جميع افتراضات الملحدين، فنشأة خلية حية واحدة تحتاج كما يقول "تشاندرا ويكراماسينجي" زميل "فريد هويل" احتمالا واحدا من بين ١٠ مرفوعة للأس ٤٠ ألف احتمال (يعني لن يكفي عمر الكون بأكمله منذ نشأته بكل ذراته لإعطاء كل الاحتمالات)، وتبلغ دقة قوانين الكون وثوابته لنشأة الحياة على الأرض احتمالا من بين ١٠ مرفوعة للأس ١٢٢ احتمال (أي ١ وأمامه ١٢٢ صفرا وهو رقم هائل لا يمكن تخيله) وهو ما أحرج الملحدين لدرجة جعلتهم يفترضون فرضيات دون أي رصد أو دليل تجريبي عليها لمحاولة تفسير كل هذه الدقة الرهيبة، فبدلا من الاعتراف أنها بفعل حكيم عليم قدير (شأن أي شيء مصمم)، افترضوا وجود عدد ضخم جدا من الأكوان المتعددة تختلف قوانينها وثوابتها لكي يكون احتمالا واحدا منها هو كوننا الصالح للحياة (فهربوا من احتمال من ١٠ مرفوعة للأس ١٢٢ إلى احتمال من ١٠ مرفوعة للأس ٥٠٠ كما قدرها الفيزيائي الملحد "ستيفن هوكينج" !) وهو ما عبر عنه الملحد "ستيفن وينبرج" الحائز على نوبل في الفيزياء بقوله في لقاء مصور مع "دوكينز" : "إن دقة قوانين الكون أحرجت الملحدين، فهي لا تترك إلا خيارين، إما إله خالق، وإما الأكوان المتعددة"، ومعلوم أنه لا يوجد أي دليل علمي رصدي أو تجريبي على وجود هذه الأكوان (فأين ذهب قول الملحدين والماديين والطبيعانيين بأنهم لا يؤمنون إلا بالمرصود والمحسوس ؟!) فضلا عن عدم تفسيرهم لكيفية توليد هذه الأكوان(ح).

سمولين"، والتي تقوم الأكوان وفقا لها بنسخ نفسها عن طريق إنتاج "متفردات كونية" (الثقوب السوداء) وتقوم أنواع مختلفة من الأكوان بالتناسخ بمعدلات مختلفة، وبذلك تتيح نشوء نوع من الانتخاب الطبيعي بينها. إن "دوكينز" مفتون بفكرة أن مبدأ الانتخاب الطبيعي يعمل علىٰ المستوىٰ الكوني. إنه لا يتساءل عن عدد الأكوان التي يمكنها أن ترقص علىٰ رأس الدبوس[١].

كتاب "كريستوفر هيتشنز" : "الإله ليس عظيما"[٢]، أحدث الكتب الخمسة التي يتم مناقشتها هنا، وهو يختصر بعض الحُجج المتواضعة للملحدين الجدد الأخرين. يعتمد "هيتشنز" علىٰ أفكار كل من "دوكينز" و"دينيت" في أن الدين يمكن أن يتم تفسيره بالمنهج الطبيعي، ويتفق مع "هاريس" علىٰ أن أصحاب الدين الوسطي يوفرون ستارا يتيح للأصوليين والمتطرفين أن يعملوا في ظله. يعكس الكتاب خبرته التي امتدت إلىٰ عقود من السنين عمل خلالها كصحفي يراقب الشرور المعاصرة التي يسببها الدين[٣]. عندما يناقش الدور المدمر الذي يلعبه غالبا في بؤر الاضطرابات مثل الشرق الأوسط، جزر البلقان، وأيرلندا الشرقية، فإنه يستطيع دعم وجهات نظره بثروة من النوادر التي جمعها خلال رحلاته العديدة إلىٰ تلك المناطق. ويتضمن كتابه

---

(١) لا يناقش "دوكينز" الزعم القائل بأن فرضية الأكوان المتعددة لا تقبل الدحض بشكل أكبر من فرضية وجود مصمم ذكي، ولذلك فهو قابل للاعتراض. إن عالم الكونيات المفضل لديه "لي سمولين" يحتج في كتاب "البدائل العلمية للمبدأ الإنساني" (متاح على شبكة الانترنت على الرابط : http://arxiv.org/abs/hep-th/0407213 ومنشور في Bernard Carr ed, Cambridge Univ. Press, 2007 : "كون أم عدة أكوان؟") بأن فرضية تعدد الأكوان من شأنها أن تدحض بشكل تجريبي.

(2) Christopher Hitchens, god is not Great: How Religion Poisons Everything (Twelve Books, Hachette Book Group, 2007).

(٣) تم الرد على مثل هذا في جزئية "سام هاريس" وتعميتهم على جرائم الإلحاد التي لا يضاهيها ما ينسبونه إلى الدين (الإسلامي خصوصا) من إرهاب، وتغاضيهم عن التدخل العسكري الغاشم لبعض الدول الكبرى الذي يدفع مناطق بعينها إلى أتون الحروب والصراعات لأهداف سياسية وللتربح من بيع الأسلحة(ح).

فصلا عن الدور الذي لعبه الدين في إعاقة مبادرات الصحة العامة. وهناك مثالان على ذلك: (أ) قيام الأساقفة الرومانيين الكاثوليك بعدم تشجيع المؤمنين على استخدام الواقيات الذكرية، على الرغم من كل الأدلة على فعالية الواقيات الذكرية في منع انتشار الأمراض الجنسية و(ب) قيام الأئمة في نيجيريا بإثناء الجموع عن المشاركة في برامج التطعيم- وبذلك سمحوا لأوبئة مثل الجدري وشلل الأطفال، والتي كانت على شفا الاستئصال التام، بأن تنشط من جديد وتعاود انتشارها[١].

يتضمن هذا الكتاب فصولا لاذعة بعض الشيء عن الكتاب المقدس. ففي رواياته التاريخية يجد "هيتشنز" تضاربات داخلية وكلاما يتناقض مع الاكتشافات الحفرية. (إن مناقشته للعهد الجديد مفعمة باقتباسات من أفكار "توماس بين" و"إتش. إل. مينكين"). إنه ينتقد القرآن أيضا بنفس الطريقة، وكذلك يفعل مع السيخ الهندوس ومع البوذيين لقيامهما بترويج الخرافات وتعزيز أنظمة اجتماعية قمعية.

إن حكايته عن الكيفية التي قام بها "جوزيف سميث" بإطلاق كنيسة المورمون تقتبس أدلة موثقة تثبت أن "جوزيف" كان في الأصل دجالا. من خلال تلك الرواية الجذابة المليئة بالغش المتعمد الناجح، يسعى "هيتشنز" إلى استخلاص نظرة ثاقبة

---

(١) حتى الأمثلة التي يتم ضربها لتوصيل ما يريده الملحدون إلى القراء: تتسم بالانتقائية ولا تمثل أصل التعامل الديني مع هذه القضايا المذكورة، إذ كل دين أو رسالة سماوية ترفع من شأن الإنسان والحفاظ على صحته ما أمكن، لذلك لن نجد رجل دين حقيقي يعارض استخدام (الواقي الذكري) مثلا لغرض طبي وقائي بين الزوجين، أو لغرض تأجيل الحمل بينهما ونحوه (أي طالما كان في إطار أسري شرعي معلوم بين الزوجين)، وكذلك التطعيم من الأمراض عندما يأتي من جهة موثوقة بعيدا عن مخاوف التلاعب الطبي أو تجارب شركات الأدوية الكبرى دون علم أو رضا المرضى أو استغلالا لفقرهم (وللعالم الغربي جرائم سابقة في استغلال الدول الأفريقية وغيرها في ذلك)، والشاهد: لن نجد هذا الرفض المتعسف في تلك الحالات المشروعة في أي قول أو مذهب إسلامي أو ديني معتبر، ولهذا قلت: أن ما يفعله الملاحدة دوما هو (انتقائية) إبراز حالات خاصة في بلادها دون الإشارة إلى ظروفها ومشاكلها ذات الخلفيات السياسية.. تلك الظروف والمشاكل التي قد تتمثل في معارضة التدخل الخارجي في شؤونها، مثل توفير الواقي الذكري لطلاب المدارس لتيسير العلاقات الجنسية خارج الزواج، وكذلك معارضة بعض الجماعات المتشددة للتطعيم (ح).

حكيمة إلىٰ طبيعة الأديان النظامية بشكل عام، وإلىٰ الكيفية التي بدأت بها الأديان الأقدم[١].

إن رؤية "سام هاريس" شبه التنبؤية عن الصراع بين الغرب والإسلام تلقي الضوء علىٰ الموضوع الهام المتعلق بالكيفية التي يجب علىٰ الملحدين والإنسانويين الغربيين أن ينظروا بها إلىٰ المسلمين؛ ولذلك، فإنني أود أن أنهي هذه المقالة بقصة مختصرة عن "الإنسانوية الجديدة" التي روج لها الإنسانوي "تشابلين" (منذ ٢٠٠٥) في هارفارد، حيث نجد "جريج إيبستاين" ملحدا وبالرغم من ذلك، فإنه يحاول بمساعدة من بعض الملحدين المشهورين عالميا مثل "أمارتيا سين" و"سلمان رشدي" الترويج لموقف إنساني متسامح ومتعدد الثقافات وشامل تجاه

(١) الغش والكذب والخداع صفات إنسانية قبيحة تحاربها الأديان لأنها تقطع الطريق إلى الله وتشوش على السالكين، ومن الامتحان في الدنيا من الله للبشر أن منهم مَن يتجرأون على الكذب عليه وباسمه لخداع الناس والاستحواذ على أموالهم بالباطل واكتساب المنزلة المقدسة بينهم (حتى في الإسلام ليبقى كل إنسان مطالب بالنظر فيمَن يتبعه ويأخذ دينه عنه) لكن الشاهد هنا: لو كان لـ "هيتشينز" اهتمامٌ حقيقيٌ بنفي صحة الأديان لوجود الكذب والتلفيق فيها: فلماذا لم يستوقفه التطور وامتلائه بعشرات وقائع الغش والتزوير والكذب والتلفيق خاصة في العظام والحفريات للكائنات الحية؟ ما باله بالغش في رسومات "إرنست هيجل" Ernst Haeckel للمراحل الأولى للجنين البشري ليجعلها تشبه أجنة الحيوانات الفقارية واستمرت في الكتب العلمية والدراسية لأكثر من ١٠٠ عام (الحقيقة إلى اليوم لا زال يتم نشرها بعد إثبات خطؤها)؟ الغش في جمجمة إنسان "بلتداون" Piltdown man التي تم تركيبها من عظام إنسان وأورانجتان (ليقال أنها للإنسان الحلقة المفقودة) وتمت معالجتها بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لتوحي بقدم عمرها وظلت في المتاحف قرابة ٤٠ عاما؟ الغش في جمجمة وعظام فخذ إنسان "جاوا" Java man بين الإنسان والقردة ليستمر التزوير قرابة ٣٠ عاما كما اعترف مكتشفها "يوجين ديبوا" Eugène Dubois به؟ الغش في تلفيق عظام من ٥ عينات منفصلة عام (١٩٩٩) للزعم بأنها لديناصور له ريش (حلقة الوصل بين الديناصورات والطيور بزعمهم) وأسموه "أركيورابتور لياونِنجنسز" Archaeoraptor liaoningensis ونشر مجلة "ناشيونال جيوغرافي" للـ (اكتشاف المثير) رغم علمها المسبق بالتلفيق؟ الغش في الحفرية "روديسيتوس" Rodhocetus كجد مائي لتطور الحيتان حيث قام مكتشفها "فيليب جنكريخ" Phillip Gingerich برسم وتصوير زعانف وذيل لها رغم عدم وجودهم في الحفرية المكتشفة! غش عالم الحفريات "رينير بروتش" Reiner Protsch في أعمار الجماجم البشرية والقرود طيلة ٣٠ سنة للتكسب من بيعها للمخدوعين بسيناريو تطور الإنسان! هذا كله غيض من فيض، فضلا عن عشرات الأخطاء والمغالطات في تفسير الحفريات والمكتشفات وثني أعناقها لتتواءم مع التطور مثل افتراض وجود أعضاء آثارية ضامرة Vestigial organs في الجسم بغير وظيفة والتي وصلت لإنكار وظيفة الغدد الصماء نفسها قبل اكتشاف الهرمونات! ومثلها افتراض وجود حمض نووي خردة Junk DNA بغير وظيفة وهو ما أثبت العلم خطأه كالعادة، وغير ذلك الكثير(ح).

المؤمنين[١]. إنه يشير إلىٰ عالم البيولوجيا بجامعة هارفارد "إي. أو. ويلسون" (وهو لا أدري) كمثال بارز علىٰ شخص إنسانوي سعىٰ ببعض النجاح إلىٰ إيجاد تعاون بين جماعات دينية مثل المعمدانيين الجنوبيين (في الولايات المتحدة) في مخاطبة الاهتمامات المشتركة بين الجميع، والاحتباس الحراري[٢].

إن وجود النزعات الإنسانوية وحتىٰ الإلحادية بين مجتمعات الأديان الكبرىٰ يمكن أن يُسهل بعض أنواع التقارب الهامة. "إيبستين" نفسه هو حَبر مُرسم وعضو في الحركة الإنسانوية اليهودية التي أسسها الراحل "شيروين واين"[٣]. تحتضن تلك الحركة الثقافة اليهودية، بينما ترفض كل الأفكار فوق الطبيعية - بما فيها الإيمان بوجود الله - إنها تنظر إلىٰ التاريخ اليهودي والثقافة اليهودية كمصادر للهوية اليهودية بدلا من أن تكون مصدرا للمعتقدات الدينية. لقد كانت هناك توجهات إنسانوية وحتىٰ إلحادية في المسيحية المعاصرة كذلك. كان "جراهام جرين" معتنقا جديدا مشهورا للكاثوليكية الرومانية، ولكنه وصف نفسه في سنواته الأخيرة بأنه "كاثوليكي ملحد"[٤]؛ كان "جورج سانتيانا" أيضا ملحدا مجاهرا بإلحاده لم يكن يحتفظ بسر تعلقه بالكاثوليكية الرومانية.

---

(1) David Niose, “Interview with Greg Epstein, Humanist Chaplain of Harvard.” The Humanist (March-April 2007), pp.20-24; text available at : www.secularstudents.org/node/602.

(2) See : E. O. Wilson, The Creation: An Appeal to Save Life on Earth (W. W. Norton, 2006).

(3) See : www.shj.org/wine.htm.

(4) Quoted in V. S. Pritchett, “The human factor in Graham Greene,” in The New York Times, 26 February1978.

وحتىٰ الملة البروتستانية المتحررة تضمنت توجهات معينة كانت تفسر غالبا علىٰ أنها إلحادية. يقول "سيدني هوك" عن "بول تيليش" :

"بشجاعة مثيرة للإعجاب، يقول "تيليش" بجرأة أن رب العالمين ليس موجودا، وأكثر من ذلك. أن الإيمان بوجوده يماثل الإيمان بوثن ويؤدي في النهاية إلىٰ الإيمان بالخرافات. لا يمكن أن يكون الله كيانا من الكيانات، ولا حتىٰ أعلاهم. إنه كيان موجود في نفسه. بهذا المعنىٰ، فإن الإله بالنسبة لـ"تيليش" يشبه إله "سبينوزا" وإله "هيجل". كان المتدينون قديما يلفظون كلا من "هيجل" و"سبينوزا" بسبب إلحادهم، لأن إلههم لم يكن "كيانا" ولا "كائن". أما "تيليش" فهو مُنظِّر ديني ذو أهمية كبيرة في زماننا"[(١)].[(٢)]

لم يكن الإسلام منيعا ضد هذه التوجهات. لقد وصف "سلمان رشدي" كيف أنه عندما كان طفلا صغيرا في الهند، كانت عائلته تتضمن أناسا كانوا علمانيين تماما

---

(١) انظر : Sidney Hook, "The atheism of Paul Tillich," in S. Hook, ed., Religious Experience and Truth: A Symposium, (New York Univ. Press, 1961)
يقول "تيليش" نفسه في كتابه (لاهوت الثقافة) - جامعة أوكسفورد، طبعة ١٩٥٩، ص ٥ : "إذا بدأت بالسؤال عن وجود الخالق أو عدم وجوده، فإنك لن تستطيع أبدا الوصول إلى الله، وإذا أكدت على أنه موجود، فإن عجزك عن الوصول إليه يكون أكبر مما يكون عليه حالك إذا أكدت على أنه غير موجود. إن ربا يمكن أن تحاجج في وجوده أو عدم وجوده هو شيء يتجاوز كل شيء في عالم الأشياء الموجودة". ويستمر في الإطراء على العلماء الذين ينتقدون الحُجج التقليدية التي تدعم وجود الله : "في الواقع، إنهم لم يقوموا فقط بعدم دحض الدين، ولكنهم أسدوا له صنيعا كبيرا، فهم اضطروه إلى إعادة التفكير وإعادة صياغة معنى الكلمة الهائلة الله".

(٢) هذه الجزئية التي أشرت إليها في المقدمة من وضوح هدف المؤلف من حشد هذه الأمثلة ليخبر القراء وقتها (في ٢٠٠٧) أن المستقبل للإلحاد والإنسانوية والتعايش، سواء انتصرت أفكار إنكار الإله الصريحة في مجتمعات المؤمنين، أو تسترت بالنفاق والخداع تحت عباءة الإيمان لتعلن المصطلحات المتناقضة استخفافا منها بالعامة والبسطاء من قبيل (الكاثوليكي الملحد) الذي ذكره ! والذي يساوي وصف (المؤمن الملحد) ! بل ولا ضير عنده من شيوع الإيمان الباهت بإله غير شخصي (أي لا وجود له بإرادة حرة ومشيئة) وإنما من قبيل وصف قوانين الكون الدقيقة بأنها هي نفسها (الإله) ! أو بإله هو نفسه الكون وما فيه (وحدة الوجود)(ح).

ظاهريا (مثل أبيه) وأيضا أناسا متدينين متقين (مثل جده)[١]، ومع ذلك كانوا في غاية الانسجام[٢]. قام الناشط السياسي البريطاني المشهور والمؤلف "طارق علي" بحكاية نفس الوصف فيما يتعلق بخلفيته الأسرية في باكستان[٣]. لم يكن التطرف الإسلامي الذي نشهده الآن معروفا حينها. ويقال أن هناك الملايين من الملحدين واللاأدريين اليوم في الدول الإسلامية[٤].[٥] لأجل أسباب من هذا النوع، ينادي "إيبستين" بالإنسانوية من أجل تجنب المغالاة في التأكيد علىٰ جذورها الغربية.

---

(١) تعد الشخصيات المرتدة المجاهرة بسب الإله والنبي والإسلام صراحة (مثل سلمان رشدي) غنيمة مفضلة في أول ظهورها بالنسبة لأعداء الإسلام، فمن جانب: يستغلونها وكأنها المسلم الذي (استفاق) على (حقيقة الإسلام) فتركه (ومن ثم يشرع في نسج القصص المكذوبة وتكرار الشبهات الممجوجة المردود عليها منذ مئات السنين ليخدع بها الغرب والعامة وغير المسلمين)، ومن الجانب الآخر: يحاولون تأخير إعلان ردتها صراحة لأطول فترة ممكنة، بمعنى: كلما كان المهاجم الشاتم للإسلام ومقدساته محتفظا بوصف (مسلم) مهما كان ما سيلصقه به من تقسيم فرعي (مسلم ليبرالي – علماني – يساري – اشتراكي - حداثي - تنويري إلخ) فذلك أقوى في نشره البلبلة والتشكك بين بسطاء المسلمين، أما بمجرد إعلان ردته علنا: فيبدأ صوته في الخفوت، وسمعته وصيته في الخمود، ولم يعد له من الزخم مثل الذي كان له في بداية ظهوره(ح).

(2) Salman Rushdie, impromptu public talk upon receiving on 20 April 2007, at the "New Humanism" Conference at Harvard, the Humanist Chaplaincy's "Outstanding Lifetime Achievement Award in Cultural Humanism."

(3) Harry Kreisler, "Islam, empire, and the Left: conversation with Tariq Ali, Editor, New Left Review" (8 May 2003); text available at : http://globetrotter.berkeley.edu/Elberg/Ali/ali-con1.html.

(4) David Abel, "The nonbelievers," in Boston Globe Magazine, 16 September 2007; text available at : www.boston.com/news/globe/magazine/articles/2007/09/16/the_nonbelievers.

(٥) اليوم (وبعد مرور قرابة ١٣ عاما من هذا المقال) إذا طلبنا من مركز بحثي تقدير نسبة الملحدين أو اللاأدريين في العالم الإسلامي: لن يستطع ذلك لاعتبارات كثيرة (منها ما يرجع لصعوبة تحديد الفاصل التعريفي نتيجة جهل أكثر الملحدين بماهية الإلحاد – وقد قابلنا عشرات المراهقين والشباب الذين يظنونه اتجاها فكريا تحرريا لكنهم لا يعرفون أنه إنكار لوجود الإله ويستنكرون ذلك! ومنها ما يرجع لصعوبة إجراء البحث نفسه في مجتمعاتنا) والشاهد: مع انطلاقة موجة الإلحاد الجديد فقد رافقها الكثير من الأكاذيب لترويجه وتضخيمه بين العامة وعلى مواقع التواصل، منها الدراسات الإحصائية المفبركة عن نسبتهم، ولعل أشهرها الدراسة المزعومة لمعهد (جالوب وين) ونشرتها الواشنطن بوست لتمتلىء بالمتناقضات الفجة مثل: أن عدد الملحدين في السعودية ٥% وهي البلد السنية المحافظة، في حين أن نسبتهم في تونس صفر% وهي البلد التي تعاني من تمكين العلمانية والليبرالية والإلحاد فيها رسميا منذ عهود بصورة كبيرة! (ح).

في نفس الوقت، أعتقد أنه من المهم قيام الملحدين والإنسانويين العلمانيين ببذل الجهد من أجل فهم الأسباب التي أدت إلىٰ اكتساب الإسلام المتطرف والإسلاميين درجة الشعبية التي اكتسبوها خلال العقود الثلاثة الأخيرة. بعض العوامل الهامة التي أدت إلىٰ صعود الإسلام - في رأيي - تتضمن تداعي اليسار العلماني والحركات القومية في البلاد الإسلامية. ففي وقت تداعي اليسار العلماني، ظهرت فجوة سياسية استطاعت الحركات الإسلامية السياسية الوثوب إليها كممثلين جدد نائبين عن الفقراء والمهمشين في تلك البلاد. إذا أرادت الإنسانوية العلمانية إعادة السيطرة في هذه البلاد، فإن علىٰ الإنسانويين هناك أن يتعلموا من جديد التكلم بوضوح عن متطلبات الفقراء والمقموعين في بلدانهم[١].

لقد راجت أقوال كثيرة تدور حول الفكرة القائلة بأن الإنسانوية الجديدة تعارض بشكل ما الإلحاد الجديد، ولكني أعتقد أنهما متكاملتين وليستا متضادتين. لقد فاز الملحدون الجدد بمساحة في الثقافة الأمريكية عن طريق توفيرهم لفرص جديدة لهؤلاء الإنسانويين الملحدين الذين يتبنون منهجا استرضائيا بشكل أكبر تجاه المتدينين، وبذلك يساهمون في تأمين تلك المساحة.

* * *

---

(١) لا شك أن الدين من أعظم دوافع البشر للعمل في الدنيا والتضحية بالغالي والنفيس، وعندما يقترن خطاب حقوق الفقراء والمقموعين بالدين فهو الدافع الذي إن استقوى فغالبا لن يقف أمامه أحد، لذلك تفضل الكثير من الأنظمة الفاسدة أن يقترن خطاب حقوق الفقراء والمقموعين بأي شيء آخر غير الدين، وهنا تبرز الاتجاهات اليسارية والشيوعية (أكثر من غيرها) كأشهر من يستنفره الحديث عن الظلم الاجتماعي والحقوق المنهوبة للشعب والفقراء والعمال وغيرها، وهي أغلبها مطالب عادلة بالفعل (ويشترك الإسلام في المطالبة بها كما قلنا)، لكن يأبى الإلحاد أن يأتي بها إلا على ظهر الكفر بالله والطعن في ثوابت الدين والكثير من الانحرافات الأخلاقية، وهذا سر عدائها مع الدين، لذلك نفهم تركيز المؤلف على تلك النقطة لأنه يعلم أنها أكثر ما يجذب الشباب الباحث عن العدالة والحقوق بعيدا عن الدين - وقت إسكات صوت الحق - ولعل في ذلك ملحظ هام أن الإلحاد عند عدد كبير من المتأثرين باليسار وأشباهه ليس عن أدلة، وإنما إصلاحي عاطفي(ح).